نساء المنكر

سمر المقرن

رواية



دار الساقي

سمر المقرن

نساء المنكر

رواية



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-040-8

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

(١)

لأني من الأنانيات في هذا العالم، كان لا بدّ لي من أن أراه من أولئك الذين جُبلوا من طينة مختلفة، ليس لأنهم عمالقة لا يتضعون فحسبُ، ولا لأنهم هامات لا تنحني، ولا حتى لأنهم حلم. كان هو من طينة هؤلاء جميعاً: عملاقاً وهامةً وحلماً.

كان واقعاً عندما دلف إلى داخلي. كان كل شيء حتى أصبح لا شيء. أصبح الدخول إلى أعماق العملاق مع الزمن مجرّد دوران في صندوق ماسِيّ، هو لي ومُلكي، إلا أن بريقه ووهج ضوئه جعلاني أنسى أن تلك الأحجار الكريمة التي اصطفّت على أركان الصندوق وحيطانه بحاجة إلى ذرّات هواء جوفي الساخن حتى لا يتراكم عليها التراب.

يبدو أن الأنانية أنسَتْنيه! ولأني منهم! أراه لنا، يعيش لأجلنا، يبحث عن ابتساماتنا. ولكني نسيت وإياهم ابتساماته، وآلامه، وشعوره، وغيرته. كنتُ أنتظره فقط، فنسيت أن وثيقة الحب المكتوبة بنبض القلب تنصّ على (هاتِ وخُذ).

سهرت ليل البارحة كلّه بعد أن أراد أن يلمّح لي بأنه هنا، ما زال

موجوداً. ويبدو أنني ذُهلت. فعلى مرّ السنين كانت تتسلل منه رائحة الرضا بنكهة القناعة وها أنا اليوم أسهر ملطّخة بآثار الأنانية.

عندما بدأ حديثه ينضح بالألم والعتاب، كانت علامات الاستنكار تعلو جبيني معلّقة: «كيف لا يتخفّى؟ أو يتصنّع؟» فليس من حقّه إلا أن تكون الابتسامة على شفتيه أمامي، ياآاااه كم أنا حقيرة أن لا أشعر بك، أن أرفض آلامك، أن أستنكر غيرتك، كلّي أمام نفسي ملطخة بالأنانية التي صنعتني بها، كما صنعتها في كل من حولك.

بدأ حديثه بقصص إيمائية رحت أتلمّس من ورائها بداية الخيط لأمسكه. وللمرّة الأولى خلال عامين كانت حشرجات صوته تتعثر بغصّات العتب وكنت للمرّة الأولى، أحاول الخروج عن أنانيتي لأساعده على الصمود.

كيف استطعت أن أستمرّ طوال ساعات بين غصّاته التي اعتاد أن يخفيها...؟

- عندما تخون المرأة حبيبها، هل تُبلغه بذلك لإراحة ضميرها؟ أم تندم وتعود إليه صادقة؟

هكذا كان يسأل في محاولة إشعار. وكنت أردّ من واقعي: تعود إليه نادمة ولا تتحدث له بشيء.

على أنّ الرجل الشرقي لا يتقبل. وقد جاءت إجابتي باهتة ناقصة، إذ كنت متردّدة ما بين دائرة الأنانية ودائرة الدفاع عن النفس، ولم أفهم الرسالة التي كان يريد أن يوصلها إليّ! فبحجة الذكاء كنا نمارس «لعبة عقلية» نترجمها حيناً في الكلام وحيناً آخر بآهات لم يكن كلّ

منا متأكداً إن كانت قد وصلت إلى مسامع الآخر، عبر ذلك الهاتف الصغير الذي لا تحمله سوى ذبذبات نقلتها لنا السماء، من دون أن تشعر أنه كان في ذلك اليوم عاشقان بحاجة إلى التقاط كل ما يجول في نفسيهما، لفكّ شفرات اللعبة العقلية.

الأمر نفسه! قلبٌ لكل إنسان متى ما عشق حلّت الطامّة باختلاف الظروف أكان متزوجاً أم أعزب أو كانت متزوجة أم عزباء. كل المجتمعات بما فيها الغربية ترفض أكثر من علاقة مع اختلاف الخلفيات. ففي الغرب حرية تامة في الزواج ولا يتم في العادة إلا بعد تأكيد الطرفين أنهما سيعيشان معاً إلى أن يفرّقهما الموت. الالتزام بينهما يبدأ منذ اتخاذ القرار والوقوف أمام القسّيس في الكنيسة ما يعني أنه «عهد» لا ينقضه أي طرف مهما كلّف الأمر. أما الزواج في المجتمعات العربية فمجرّد عادة. لذا تختلف ظروف العلاقات المتعددة من مجتمع إلى آخر. أما عن نفسي فلا أحبّ إطلاق الأحكام: فلكلٍ من الرجل والمرأة ظروفه الخاصة.

انقضت ثماني سنوات من عمري وأنا أحمل على الأوراق الرسمية لقب «متزوجة» وما أنا في الواقع إلا «مُعلقة»، والضمير التقليدي لا يتوانى في وصفي أمام نفسي بحاملة الخطيئة. آخر مرة وقفتُ فيها أمام القاضي أطلب حقي في الحصول على ورقة الطلاق كانت قبل عامين بعدها يئست. ولا أنكر أن دخول رجل في حياتي ردّني نحو «الحياة» التي كنت قد كرهتها، وتعبت فيها ست سنوات وأنا أصعد وأنزل على سلالم المحاكم، حتى صرت خبيرة بمكاتب

القضاة التي تشغل ثمانية طوابق في مبنى يتربّع وسط مدينة الرياض.

وصف نفسه بالحداثي، أو هكذا عرفته. وهذا يعني أنه رجل خارج عن إطار التقليدية الفكرية التي تلازم الرجل الشرقي عموماً، ولها تفاصيل أوضح في ذهنية الرجل السعودي، إلا أنه في النهاية يعود إلى «الأصل» فيعتبر دخول امرأة متزوجة على الورق في علاقة مع آخر خيانة أولى تجر إلى أخريات. لم يُصرّح بذلك إلا أن تفاصيل صغيرة في تصرّفاته تثبت ذلك.

الموت الذي نخافه سخيف، والأسخف منه الخوف غير المبرّر. تعمّدت أن أتجاهله وأنتقل إلى حُلكة الظلام، وما هي إلا ميتة الشجعان، فغباءٌ مني استعطافه وهدرٌ لعزّتي الأنثوية الخوفُ من تهديداته المبطّنة، فمحاولة الحب تحتمل الإخفاق والنجاح، أما أن يتعدد الفشل فالاعتراف هنا موت أكثر شجاعة.

«حاولتُ أن أكون حبيبة ناجحة لكني فشلت»... قلتها في رسالة قصيرة عبر الهاتف النقّال اعترافاً مني بالفشل، ذلك لأني لا أرى في ذلك عيباً، ولأن العيب الحقيقي أن أستمرّ مصرّة على فشلي. ليس عيبي ولا عيبُه ولا انتقاصاً من حجم ذلك المارد الذي أدار حياتي فجأة. كان بودّي أن يستخدم قوة الرجولة في قتله ونزعه من أعماقي، لكنه كان أضعف مني. كان ماردي يحرّكه هو أيضاً. قوة رجولته قصّرت عن ذلك، مما زاد يقيني بأن المخلوق المنعوت بـ«الرجل» لا يملك القوة التي بجّلوه من أجلها ورفعوه بها على المرأة. كل امتيازات الرجل على المرأة لا تعدو قدرته على حمل

بضعة كيلوغرامات، أما في شكله الخارجي فلا يزيدها إلا طولاً في بعض الأحيان وزيادة في عرض الكتفين.

يا لكم من جبناء تنعتونها بالضعيفة وما من ضعيف سواكم. تخشون المرأة، تهابون لقاءها، وتعجزون عن كبت غرائزكم عنها. في حضرتها تتبخر قوة العضلات وتتلاشى هيبة اللحى والشنبات، فإيماءة منها تحرككم في كل اتجاه، ولن تكونوا حتى كلعبة الشطرنج لأنها للأذكياء. الرجال الضعفاء أقل حتى من لعبة طفل لم يبلغ العامين مصنوعة من أردأ الخامات.

أن تكون قوة وتمارس بها ضعفك فإنها مُنتهى الضعف، وأن تكون الأنثى ضعفاً وتمارس به قوة فقد علت القمّة.

ولو لم تكن المرأة قمّة لما حطّم الذكور آثار «الربّة» خوفاً من تذكّر قوّتها. ولما جعلوا ضعف حوّاء مسيطراً على كل النساء، إلى أن نَسِيَت المرأةُ نفسَها، نَسِيَتْ أنها إيزيس وعشتار وجونوا وهيكاتي وبيلونا المعارك، نسيت أنها ربّة الكون التي قالت: «أنا الطبيعة، أنا الأم الكونية، أنا سيدة كل العناصر، الطفل البدائي للزمن، حاكمة كل الأشياء الروحية، ملكة الموتى وملكة الخالدين أيضاً، التجلّي الوحيد لكل الأرباب والربّات، إيماءة مني تحكم أعلى القمم المشرقة في السماء وأنفاسَ البحار كلّها والصمتَ الحزين للعالم السفلي».

(٢)

لا أريد قراءة «تحطيم الصنم العلماني»... لا أريد قراءة أيّ جولات جديدة لمحمد الشريف في معاركه ودفاعه عن النظام السياسي الإسلامي، لا أريد قراءة خواطر محمد الشعراوي التي كنت أبحث فيها عمّا سرقه التشدد الوهّابي من حياتنا. لست الآن في هذا الوارد. سأتوجّه إلى أحلام مستغانمي، سأتوجّه إلى الحبّ، وإن كانت هي قد وجدته في باريس فأنا وجدته في لندن على زاوية شارع (الكوينز وي) الذي ساقني إليه الفضول.

لم أحدّد بعدُ هل كنت أبحث عن رئيف أم أبحث عن نفسي، في فتنة الطريق إلى نتوءات جديدة أمارسها لأفضح آهات العشاق على الملأ، فلا يُعقل أن لا يسمعها أحد سواهم فلا يتعلم.

الدهشة لم تكن أضخم مما حدا بقلبي بعد أن حمل جسدي وتحدّى كل شيء، وانطلق ست ساعات بالطائرة، ليكتشف هذا الرئيف؟ أم ليحبّه؟ أو ليعشقه؟ أم هو الإصرار على خوض حياة لأدرك أبجدياتها، حياة تسوقها الفطرة وهي التي تكوّنها وتحرّكها ومن ثمّ ينظمها العشق.

كان ينتظرني في وقت متأخر من الليل، على موعد لم نحتمل تأجيله برغم جهد السفر والتنقل والسهر، ففضول النظرة الأولى واللهفة لن يهدأ إلا بلقاء كهذا فور الوصول. وما كدت أقف على الرصيف وأنا خارجة من محطة «بيز ووتر» حتى رأيته يحدق بعينيه الصغيرتين نحو الخارج، وكنت قد هاتفته بأني قادمة في اتجاه مقهى «بيلا إيطاليا».

اللحظة الأولى للقاء يصعب وصفها... كنت وقتها أحمل كل المتناقضات والمشاعر التي يصعب على أي إنسان حملها دفعة واحدة، والرهبة أيضاً حضرت، فبرغم قناعتي في البداية بعدم التكافؤ حتى وإن كان شكلياً بيننا فإن ما حصل في ما بعد لم يأتِ إلا بالتكافؤ.

الحب الذي يبدأ عبر أسلاك الهاتف وخلف شاشات الكمبيوتر يجعل الوقوف الأول في حضرة الحبيب أمراً ليس سهلاً. وجدتني في حالة مرعبة ولذيذة في الوقت نفسه. وجهه أمامي لأول مرة شاهداً على تحقيق الأحلام الحرة في هواء لندن الطلق بعيداً من حصون الرياض وصرخات الأبالسة حولنا تنهر آدميتنا: «تغطي يا مرة».

في الأسواق، صرخات رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على النساء، يتبعها تلقائياً تسارع في خطواتهنّ، وبلبلة وخوف وتوارٍ خلف عمود أو حائط أو داخل أحد المحلات، لتتخلص بضعفها من قوة رجل الشرطة الدينية الذي بمقدوره أن يفعل بها ما يشاء، وما ذلك إلا لأن طريقتها في لبس العباءة لم تعجبه

وقد تكون متبرّجة من وجهة نظره مما يجعلها مركزاً تدور حوله شهوة الرجال فتغويهم وتحجبهم عن جنّة النعيم، كما فعلت أمّها حوّاء هذا الفعل الشنيع قبلها. النساء في تعريفهم مغويات جنسياً فهنّ المدبّرات لخطيئة الرجال.

هذه الوصاية الطبيعية التي شكّلت مجتمع الرياض، وجعلت همّه الأول معرفة ما يفعل الآخر، تُفصح عنها تلك العيون البازغة من داخل ثقوب تُعرف بـ«النقاب» لتحجب المرأة وجهها بحكمة تُمكّنها من متابعة الآخرين دون أن يتمكنوا هم من متابعتها. هذا النقاب شكّل شخصية نِسوة المنطقة وترك لهنّ وهمَ القناعة بأنه يضمن لهنّ «حرية» ما دُمْنَ خلفه بمقدورهنّ أن يُمارِسْنَ المراقبة بكل اطمئنان وإن أردنَ أيضاً أن يُمارِسْنَ الدعارة فلا مانع لكونهنّ شخصيات مجهولة ومحجوبة عن الآخرين.

داخل هذا النقاب تعيش النساء السعوديات كلّ المتناقضات، حتى أن كثيرات منهنّ يعتقدنَ أن الرجل السعودي هو «الذكر» الوحيد من بين رجال العالم الذي يجب أن تحتجب عنه ولستُ أنسى مشهداً لسيدة كانت تقف أمام السائق بلا أي حجاب وعندما مرّ شقيق زوجها رفعت ورقة تحملها بيدها لتواري بها وجهَها عنه، وهي أيضاً ضحية لمقولة «الحمو الموت».



(٣)

الآن ونحن نتحدث، كان صوت وردة الجزائرية يهمس في أذني ويتخلّل بين الحين والآخر حوارنا الجدّي، مع أن صوت وردة كان جدّياً وهي تقول:

في يوم وليلة خدنا حلاوة الحب كلّه في يوم وليلة
أنا وحبيبي دوّبنا عمر الحب كلّه في يوم وليلة

وبفطنته كان يشعر بأن عينيّ تسرحان هياماً على الرغم من محاولاتي للتماسك فيغيّر مجرى الحديث ويروي قصصاً وحكايات باسمة، يحاول بذكاء كسر الحواجز التي وضعها القدر في بداية تعارفنا، وإن كانت الساعات الطويلة التي كنّا نقضيها في الحديث والمسامرة بالهاتف أو عبر «الماسنجر» قد أزالت بعضها إلا أن ما تبقّى منها كان يبعدني أكثر كلّما حاولت عبوره.

«أسيل» ـ صديقتي ـ التي كانت في حياته حبيبة، ما زالت تؤرّقني من جهتين: الشعور بالذنب رغم أني لم آتِ إلا بعد احتضار علاقتهما، والرهبة، إذ لم يكن من السهل لذلك الرجل أن تقف أمامه المرأة تتراقص في راحتها كأس الشامبانيا. كانت مشاعري مضطربة

حيال التعبير عن حبي له واحترامي إياه وكنت أشعر بأن الإفصاح عن الحب يطغى على الهيبة والاحترام. والأكيد أن هذه ليست الحقيقة لكنها مجرد تناقضات امرأة تبدأ الألف باء في ممارسة العشق.

كان حاجز الطاولة يفصل بيننا فانتقلنا للجلوس جنباً إلى جنب على أريكة المقهى. في برد لندن كان هذا حلاً. أما في حرارة قلبينا فلم يكن لنا من حلّ إلا أن تتشابك أصابعنا كأنها تعلن بداية أن نكون، أن نصهر شتاء لندن، أن نمضي في مقاومة قسوة «الشرطة الدينية» التي تنتظرنا في الرياض وغلظة المجتمع ونعته للعاشق بالفاسق أما العاشقة فهي بلا شك مومس تستحق الرجم.

مضت أصابعنا معلنة التحدّي. وهنا حدّقت في عينيه لأول مرة بعد جهد جهيد في مقاومة الخجل. كنت أريد أن أرى بنفسي ما نقلته إليّ أصابعي، فقرأت في عينيه وقتها عبارة: «أحبك».

وعيناي ردّت بعد أن تنبّأت وردة الجزائرية في بداية الجلسة بأننا سنأخذ حلاوة الحب كلّه في يوم وليلة، صدقت نبوءتها، انحنت كل الحواجز، وارتمت جانباً رهبته، فمضيت أرتوي وأروي وأكتشف عطش جسدي لسنوات لم يكن يبحث فيها إلا عن زفرة حقيقية تنبع من داخل عاشقة لا ماكينة جنسية تعمل وقت التشغيل وتُغلق وقت الإفراغ.

القبلة الصباحية مذاقها تعلّمته لأول مرة عندما استيقظ بجانبي ليتوجّه إلى عمله.

لم يكن جسداً غريباً ذاك الذي عانقني طوال الليل، فالعشاق لا

يعرفون الزمن، عِشقُهم ما يملأه لا هو ما يملأهم. وما نسمّيها «العِشرة» ليست إلا حبالاً متهالكة لا نلجأ إليها إلا عندما نريد أن نضع أعذاراً لحياتنا التي نمارسها من أجل الآخرين فنتعلل دوماً بالعِشرة. الحب الذي مارسته مع رئيف ليلة كاملة كان أقوى وأكبر من عِشرة زوجين لربع قرن في بيت متهالك العواطف مترامي الإحساس بالآخر. هذه بيوتنا لا يعيش فيها الأزواج إلا مع وقف التنفيذ وعندما يخرجون إلى الناس يجدون أنفسهم أبدع فناً وإتقاناً لأدوارهم في إقناع الآخرين بأنهم سعداء وهم في الحقيقة لم يتقنوا في حياتهم إلا ممارسة التعاسة؟!

«اللعبة العقلية» التي مارسها معي في بداية تعارفنا كانت تأخذني إلى كثير من الهواجس بعد الليلة الأولى. فمع قناعتي بتسلّل حبّه إلى داخلي، كان الجانب المتشائم يحضر سريعاً ويطرح أسئلته:

هل تلك الليلة مجرّد فضول؟

أم نزوة؟

أم أن تعلُّق رئيف بي مردّه إلى كوني أول امرأة يصادقها بعد تعرّضه لصدمة أسيل؟

وإذا عدت إلى نشوة سرير الحب، وحديث عينيه الصغيرتين، جاء الجانب المتفائل مندفعاً رافضاً ذلك التشاؤم وحاملاً معه كل زهور الهايدبارك ينثرها حولي وعلى جسدي يمررها على أنفي لأستنشق منها رائحة رئيف التي لم تملأ الفندق فحسب بل ملأت جوفي وأنفاسي.



(٤)

في المرة الأخيرة التي زرت فيها حديقة الهايدبارك كنت طفلة لم أكمل السادسة من عمري، بَيْدَ أن صور العشاق بقيت مُتلازمة لصورة هذه الحديقة في ذهني. وقتها عندما كان يسألنا أبي إلى أين تريدون أن نذهب هذا اليوم، كنت أرد سريعاً محاولةً استباق أشقّائي في الرد، فيعلو صوتي وأنا أقول: «الهاااااايدبارك»:

وكانت ضحكة والدي توازي ارتفاع صوتي:

«سارة تريد أن تجلس على البُحيرة وتُطعم البط».

عندها كنت أقفز إلى والدتي طالبة منها أن تعطيني بقايا الخبز لأدسّها تحت ملابسي حتى لا يكتشفها رجال أمن الحديقة.

وأنا طفلة كانت الهايدبارك بالنسبة إليّ اكتشافاً، أقضي فيها الوقت ما بين استنشاق رائحة الزهور وإطعام البط. أما الهدف المبطن والذي كان من الصعب على الآخرين الانتباه له بين طيّات براءتي فهو الاستمتاع بمشاهدة الحب، أراقب العشاق وأدقق النظر في تفاصيل قبلاتهم إن كانوا مستلقين تحت الأشجار الضخمة، أما من كانوا جلوساً فلا أغفل أبداً عن نظراتهم التي كنت أقرأ فيها شيئاً

ما أفتقده كطفلة سعودية. كانت أمي تشتمهم وتقول:
«كفرة».

وعلى صِغر سنّي وطبيعة الطفل الذي ينساق خلف أفكار والديه، لم أكن أؤيّد في داخلي رفض أمي لتصرّفاتهم! إلا أني أضطر أحياناً إلى تقليدها ظاهرياً فأظهر لها اشمئزازي من تصرّفاتهم في محاولة ذكية لعدم لفت نظرها إلى تأملاتي، خصوصاً بعد ذلك اليوم الذي كدت أنكشف فيه وأنا أمدّ يدي لإطعام بطة على حافة البحيرة فإذا بها تلتهم ما في يدي من دون أن أشعر وتبقى يدي ممتدة في اتجاه البطة خاوية من الخبز وعيناي تلتهمان مشهداً لبعض العشاق وأنا مستغرقة في التفكير بتعاسة الحياة التي نعيشها، وقتها صاح والدي منبهاً:
«احذري، البطة ستلتهم يدك الخالية من الخبز».

أستحضر دائماً عبارة والدي كلما سمعت وصف الشاعر للنساء بأن قلوبهن هواء، وأتساءل هل أفرغ الذكور أفئدتنا من الحب حتى يسهل عليهم التهامنا؟...

كنت أستنشق رائحة ذلك العشق في زهور لندن، حتى أني كلّما خرجت من الهايدبارك بكيت لرغبتي في حمل زهرة واحدة إلى المنزل أشتمّ فيها رائحة العشاق في كل مرة لأن النظام البريطاني يمنع انتهاك الزهرة ويفرض على الجاني غرامة مالية وتأنيباً قد يقوده إلى المحكمة.

في هذا الصباح أزور الهايدبارك عاشقة، أسير معه ممسكة بذراعه أشعر بلذة وحشية لممارسة كل الصور الحميمية المختزنة في ذهني

منذ الطفولة تتجاوب نبضات قلبي وخفقات الريح اللندنية الهادئة ورذاذ مطر العشق. منذ أن وصلنا بقطار الأنفاق إلى محطة «هايدبارك كورنر» كنت على موعد مع حلم الطفولة. وقد تسارعت الدماء في ساقيّ فتثاقلت خطواتي رغماً عني بعد خروجنا من المحطة وظهور جزء من السور الخلفي للهايدبارك.

كان يحدّثني عن (سبيك كورنر) الذي يقام في الحديقة صباح كل يوم أحد، وكيف هي تجمعات الناس أمام المتحدثين بكل حرية، حتى أن الطعن في الحكومة البريطانية وانتقادها ومعارضتها مهما كانت في هذا المكان أمور لا يحاسب عليها القانون!

كنت أستمع له بدهشة فيقول: «انتظري دقائق وستسمعين بنفسك حديثاً لا يمرّ على أي رقابة».

«على فكرة»، يشدّ يدي ويوضح لي شيئاً عن تاريخ هذا المكان:

«سبيك كورنكر هو المكان الذي بدأ منه المعارضون السعوديون مثل سعد الفقيه ومحمد المسعري».

- ياه، ولم تنتبه لهم الحكومة السعودية في ذلك الوقت لتكلّمهم قبل أن تطول مخالبهم؟

وكان يرد عليّ وكأنه يتحدث إلى طفلة صغيرة منبهرة بالحرية: «هذه بريطانيا العظمى قلعة الديموقراطية».

دخلنا في الزحام حيث يتجمهر الناس حول ثلاثة متحدثين. وكنت أحاول رفع قامتي القصيرة لمشاهدة المتحدث إلا أن وقوفي على هذا النحو وسط ذاك الزحام كان يزعجني.

فتوجهت إلى رُكن آخر هناك كانت تقف سيدة سمراء مسنّة وبجانبها طاولة خشبية عليها مجموعة من التماثيل الصغيرة وكُتيّبات صغيرة مطبوعة ذات أغلفة برتقالية اللون، وتحمل بيدها أوراقاً تنادي بها كلّ من يمرّ من أمامها ولم يكن يستجيب لندائها أيّ من المارّة وإن وقف بعضهم فضولاً فسرعان ما يتابع السير نحو المتحدثين الآخرين. وقفتُ من بعيد أتأمّل مكانها فإذا بها تتجه نحوي مسرعة، ثم رفعت أوراقها بوجهي لأرى عن أي شيء تتحدث. كانت تنادي الناس لآلهة جديدة تستحق العبادة من وجهة نظرها، وكان الناس يمرّون بها ويسمعون نداءها فترتسم على وجوههم علامات السخرية!

وبعد أن اقتربت من السمراء المسنّة أدركت أن السخرية لم تكن لأنها تنادي بآلهة جديدة، وإنما لمناداتها بآلهة إناث. يااااه، أي زمن أرادت تلك العجوز أن تعيده للمرأة، أي حقوق تبحث عنها.

نحن السعوديات ما زلنا ننادي على استحياء، وأحياناً على خوف، بحق المرأة في قيادة السيارة وجارتنا الكويتية وصل نداؤها إلى الحقوق السياسية وأنت أيتها المسنّة وصلتِ بنا إلى حدّ العبادة: «أي تاريخ نضالي عرفته تلك السيدة؟» تساءلت في نفسي، «تُرى هل يصل الهوس بي يوماً إلى أن أنادي بعبادة المرأة؟».

وإن كان ذلك فمن حقي أن أطالب بما أريد، مثلي مثل العجوز السمراء، هذا إن كنت إنساناً من حقه أن يستخدم عقله ولسانه لتصل رسالته إلى من يريد وفي أي وقت يريد.. هل نستخدم نحن

السعوديين ألسنتنا كأداة حقوقية؟؟ حتى هذا اللسان بات لا يعرف إلا الخبائث بعد تعرّضه للقمع.

«أسيل» بين الوقت الآخر تمرّ أمامي. لم يكن من السهل أن أمسك بذراع رجل حدّثتني عنه من قبل ترمقني بنظرة غامضة لا تختلف عمّا تحمله شخصيتها من غموض ووضوح في آنٍ واحد. كلّما ازدادت قرباً مني جاش صدري بالغيرة حيناً وبالخوف حيناً آخر من أن تكون لحبها آثار بقيت في قلبه. بعد ليلة وردة الجزائرية لم يكن أمامي أي خيار سوى امتلاكه، وهذا ما وصلت إليه قناعتي أيضاً، فمن حقه كإنسان رائع أن يجد امرأة تستحقه لا امرأة تحطمه مثلما كانت تفعل أسيل. عندئذٍ شعرت بالمسؤولية تجاه رئيف وأن لا امرأة غيري قد يقع تحت تأثيرها لسنوات طويلة.

وصلت عاطفتي إلى شيء من الحدّة. تملّكتني الغيرة الشنيعة وانتابني الشعور بأني قد أفقده بعد أن اتصلت بي أسيل تخبرني أن رئيف اتصل بها بحثاً عن الجديد من أخبارها؟!

لم أفكر في محاسبته فهذا الأمر قد فرغت منه، ولكن أن أفقد كل هذا الامتلاء بالعشق كان رعباً يقبض على خناقي، فأكاد أصرخ في وجهه، ألومه، أعنّفه، أتهمه بالخيانة.

تطفو على صفحة أفكاري صورة أسيل فأزداد حنقاً. هل المرأة التي تمارس كل أصناف العذاب في مشاعر الرجل ما زالت باقية؟ كل الإجابات المحتملة عذاب بحد ذاتها؟ فأي رجل قد تظهر له صورة محبوبته القديمة والجديدة في حضنه، تسعده بما منحها من سعادة؟

لحظة دخوله إلى الفندق، وكان قد مرّ على مكالمة أسيل معي أكثر من ست ساعات، جاءت لصالح حبي، فعندما يمر الوقت على لحظة الغضب تهدأ الحدة وتتسارع الأفكار فتبقى الفكرة ذات الآثار الجانبية الأقلّ مرتكزة في الذهن، وهذا ما حدث. الغضب مستمر بالتأكيد إلا أن الهدوء يحضر بين الحين الآخر. طلبت منه الجلوس، اقتربت. وحتى قبل أن أتحدث لم يقوَ على النظر في عينيّ. فضيحة ذنبه بدت في كل تفاصيل وجهه، حتى عيناه الصغيرتان كانتا تشيان بالذنب على الرغم من سعيهما إلى تجنّب النظر في وجهي.

ولما كان من طبعي الصراحة والمباشرة، كان من الصعب في مثل هذا الموقف أن أتحكم في أشواط اللعبة العقلية. أما هو فلم يمنح نفسه الراحة في الجلوس، وكان ظهره منحنياً إلى الأمام. شعرت بارتباكه، بضميره الذي يؤنّبه.

«ما سبب اتصالك بأسيل هذا اليوم؟».

هكذا أطلقت سؤالي: وفيما هو يحاول الإجابة، كان يلتفت نحوي فينأى بوجهه سريعاً خشية أن أقرأ في تعابيره شيئاً مما يخفيه، وقد يكون مكسور الخاطر لهذا التصرف، وهذا بالفعل ما توصلت إليه برغم تلعثمه محاولاً البحث عن إجابة.

أدركت سريعاً السبب أو حاولت إقناع نفسي بذلك لأخرج من هذا الموقف دون خسائر. هكذا أردت، وإن غدت عينا «أسيل» الغامضتان تتردّدان عليّ أكثر من السابق. أوهمت نفسي وأوهمته بقناعتي لأني أحرص منه على تجاوز هذا الموقف.

(٥)

«امتلكت الدنيا».

في هذا الطريق لم أحلم لا بالثراء ولا المجوهرات ولا المنصب، فكل أحلامي تحققت في هذا الطريق وأنا ممسكة بذراع رئيف في الإجوار روود، والقمر ذاك المساء يتستل دونما وجل من بين غيوم لندن الكثيفة ليطلّ من وقت إلى آخر باسماً متنهداً لعاشقين أضافا إلى تاريخ لندن قصة حبّ جديدة. لم تكن الذبذبات المتسربة إلى جسدي تبعث فيّ الدفء فحسب بل هي الأمان الذي تفقده المرأة العاشقة في خيالاتها السوداوية عند رحيل العشق. تراودني كوابيس كثيرة وتأتيني أحياناً الرغبة في البكاء وأحياناً أكثر أبكي بعد أن يلتهم عقلي وجبة دسمة من نسيج القصص الاحتمالية، خصوصاً بعد أن شعرت بالخطر الذي يحيط به من أن يعود لأسيل مرة أخرى، وإن زال هذا الخطر فهناك مخاطر أخرى تخافها المرأة العاشقة لرجل تحفّ به النساء.

الرَجل المرغوب غالباً ما يكون الارتباط به مؤلماً ويبعث لدى امرأته شعوراً وكأنها تقف على حبل رفيع يرتفع مئات الأمتار عن

سطح الأرض. هنا تكون الإشكالية الحقيقية في ذهن العاشقة التي ترى هذا الرجل وكأنه مطمع كل نساء العالم، وإن لم يكن الأمر كذلك فيكفي أن ترى حبيبها على أنه الرجل الوحيد دونه سائر الرجال الذين يتحركون أمامها كما تتحرك النساء تماماً، وما دام رجلاً وحيداً في الدنيا فالعاشقة ترى كل النساء حوله. ويزداد الرجل لؤماً وخبثاً في تحريك هذا الخيط الحارق في قلب حبيبته.

يتعمّد رئيف رؤيتي متألمة، وأعترف بأني في مثل هذا الموقف يصبح عقلي أصغر من عقل النملة، وكلّما اشتد ألمي واستشاط لساني غضباً عليه علت قهقهته وبدت سعادته برؤيتي على هذه الحال، وفي النهاية تقع الطامّة على رأسه فأجافيه، عندها يتعهد لي بأن يكفّ عن إغاظتي. على أنه يعود سيرته الأولى كلما اشتاق إلى غيرتي فيلقي بِكرات الثلج فوق لهيب النيران ويمدّ ذراعه بعد ليلة جفاء ليسحب جسدي إلى حضنه وينتهي كل شيء مع أولى شهقات الحب.

أما أنا فأردّد له دائماً قصيدة حنان بديع «لماذا أغار؟» وأشد صوتي حينما أصل إلى قولها:

لماذا أشتاط أنا غضباً

إذا ما لمحتك مع الحسان

وأنزوي بعيداً في انحسار

السعادة عمرها قصير. هكذا يُقال وإن كنت أدركت الثلاثين من عمري فقد أعدّ السعادة أياماً على مدى ثلاثة عقود، في الشكل العام

أبدو سعيدة في طفولتي وشبابي، في أحلامي وطموحاتي ونجاحاتي، وكل من تمتلك أدواتي لا بد أن تكون خُلقت للسعادة. قد تكون السعادة حقيقة في حياتي إلا أنها تجرّدت بكل معانيها من داخلي، ولعلّ هذه المعادلة الشائكة هي التي يترجمها رئيف في بعض الأحيان بأني امرأة مكابرة فيقول بشيء من المزاح: «أنتِ مصيبة وما وقعت في حبك إلا لأنك مصيبة»، وأحياناً يقول: «أتوقع يوم الحساب عندما يحين دورك بين يدي الله أن يقول لك ابقي جانباً حتى أنهي حساب البشر فأتفرغ لك» فيعلو ضحكنا وكنت أضحك من قلبي فهذه العبارات تمنحني الإحساس بقوتي كامرأة، ولعلّه يمازحني بها إدراكاً منه لكوني امرأة سعودية لا بدّ أن تعاني بعض النقص لأنها لم تحصل على شيء من حقوقها، فيعوّض عن ذلك بالضحك.

أحبك يا رئيف. لم تكن الرجل الأول في حياتي فعلياً، لكنك الأول في قلبي وعقلي وجسدي، ومنذ أن هتفت وردة الجزائرية «في يوم وليلة» كان هتافها إيذاناً لك بأنك الأول. جنوني وحماقاتي وغيرتي، قوتي وضعفي، حبي وكرهي، أنا بكل تقلباتي بين ذراعيك لأنك الأول. قد لا يتحكم الإنسان بمجريات حياته وفي بعض الأحيان يتمنى لو أن أحداثاً في حياته لم تكن وقعت وأنا مع رئيف وُلدت ومعه أموت ومن دونه ليس إلا حياة لم أعشها.

أمتلئ بالحياة وأغوص في أعماق الحزن. في هذه اللحظة أعيش بين الفزع والتكذيب وحشة عميقة الغور بشعور غامض أوحت إشاراته بالفقد.

ليلة البعاد الأولى، وأنا في بهو الفندق أقف إلى جانب حقائبي، يطل وجهه من خلف أعمدة الفندق الرخامية. لم أبكِ، ولم أشأ أن أبكي.

طلبت منه البقاء وتركي أذهب وحدي بسيارة الأجرة إلى المطار لكنه لم يردّ وأومأ إلى العامل بأن يضع الحقائب في الخلف. وانطلقت بنا السيارة، ولزمنا الصمت طوال ثلاثين دقيقة ولكنّ كنا متشابكي اليدين، تتحدّث كفّانا عن كل ما في نفسينا. وفي مطار هيثرو كان الوقت أسرع من أي وقت آخر. بعد انتقالي مباشرة إلى صالة الجوازات التي وقف رئيف خلف زجاجها التفتّ فلم أجده. أخذت أجري وأبحث عنه من خلف الزجاج فلم أجده. توقعت أنه لم يقوَ على وداعي ولم أكن أعلم أنه الوداع الأخير. وداع كل هذا الحب الذي تربّع قلبانا على عرشه عشرة أيام جاءت مقطوعة من حزن ثلاثة عقود.

بقيتُ صامتة على الرغم من محاولات العجوز الذي يجلس إلى جانبي في الطائرة لتجاذب أطراف الحديث. أردت أن أعيش معك حتى في فراقك، أطالع وجهك في ظلمة السماء، من النافذة شبّت الدهشة ما بين عيون القمر والنجوم التي تختلف عن عيون الناس وكانت جميعها محتفية بي، صعدت إليها، سألني بعضها: مَن أنتِ؟ وكانت مصرّة على الإجابة بشغف، وبينما أنا مرتبكة إذا بنجمة تقف قبالة رفيقاتها وتقول لهنّ: إنها الحب الذي لم يعرفه بشر. هي ذاتها «حب» ملأت أصواته أرجاء السماء والأرض.

هناك رأيتك تقف خلف النجوم كملك السماء وعلمت أنك معها وأنها لم تصدّق حباً كهذا لبشر حتى تأكدّت أني أنا الإنسان الذي خُلق في هذا الزمان الذي لا يعرف للحب مكاناً.

نهاية الرحلة لامستُ الأرض وكان النور يحمل ساقيّ. نور حبك معي أينما اتجهت، كنت أبحث عنك بين مئات الوجوه وفي مئات الوجوه.

«لا أحد يشبهك سواي».

تأكدتُ أن كل العيون لا ترى وجهي بل تراك أنت يملأ حبك وجهي. وفي الأرض استنشقت هواءً غريباً كان سامّاً لأن أنفاسك لم تختلط به. ولا أعلم لماذا شعرت بالغربة حتى وأنا بين أهلي. هنا أدركت حقيقة أخرى... أنك مدينتي وأرضي وضيائي وهوائي.

لم أكن كأي امرأة عاشقة. في عشقي لرئيف أصبحت امرأة مختلفة في كل شيء أشعر في قرارة نفسي أني لن أمانع أن أكون في حياته أي شيء شرط أن يبقى إلى جانبي. منتهى الضعف أن أمارس الحب في نومي، سأمارسه في موتي وقبري سيكون جنتي، وسأحظى به جنّة في الدنيا وفي الآخرة.

والوطن عندما يتحول إلى غربة يصبح شيئاً أصعب من شهقات الموت، انفصاماً تاماً ما بين الداخل والخارج، ثمّة عتمة من دونه ويزيدها الجفاء اختناقاً.

هذه التصرفات الغريبة تقودني إلى سلسلة من التساؤلات: لماذا يتصرف معي بهذا الجفاء فجأة؟ هل كان يجاملني طوال إقامتي في

لندن؟ أم أني مجرّد امرأة لتمضية وقته؟ أم امرأة تنسيه حب أخرى؟ كل هذه التساؤلات نجحت في أسري داخل اختناقات جوفاء لا نهاية لها.

تأكدتُ من أنه لا أثر الآن في حياة رئيف لأسيل. بدأت أمتطي أشباح النساء الواحدة تلو الأخرى. أصبت بالجنون لم أعد أنا «سارة»، لم يبق لي منها شيء، حتى الطعام أنساه باليومين والثلاثة. قد تتساقط دموعي فجأة في أي مكان ولأي موقف. ولا عزاء لي الآن سوى أن أعود إلى رئيف كمراهقة سرقتها عينا ابن الجيران فأجزم لنفسي أنه يحبني وأختلق له الأعذار حتى أنهيها جميعها.

قد أتصل به في اليوم الواحد أكثر من عشر مرات، وكم أكون سعيدة في ذلك اليوم الذي يرد فيه على الاتصال العاشر وإن لم يتحدث بأكثر من:

«وحشتيني»

أو

«أحبكِ»

ويتبعها بما هي أخبارك؟ أنا بخير! عندي عمل الآن مع أحد الأصدقاء! مشغول مع والدتي! كل هذه العبارات يقولها بملل وكأنها روتين لا حياة فيها ولا نبض عاشق يحرّكها، جامدة كجمود شقائي!!!

لأني امرأة أختلف عن كل النساء، جاء رئيف قدري مختلفاً عن كل الرجال، رجلاً صعباً إذا أحبني منحني كل شيء، وإذا غضب عليّ أشعرني بالكره والنبذ والحقارة.

تعجّبتُ من ذلك الرجل الذي يمنحني كل شيء وأنا بين أحضانه، يبكي ويتألم ويبتسم من أجلي ولكنه ليس مستعداً لمداواة جروحي، وأي جروح؟ إنها جروحه التي غرسها في قلب امرأة تجردت من كل الحياة إلا منه. جاءته حافية ليتلذذ بالساديّة التي يعذّب بها نفسه ونفسها.

هو الرجل الذي عشت معه كل شيء. هو تجربتي الحقيقية بعد الثلاثين، أعادني صبية، وأطعمني الكهولة واليأس!

حتى برسالة من هاتف جوّال يستطيع أن يحلق بي إلى السماء السابعة وبرسالة أخرى أهبط وحدي إلى قاع الأرض. مللت نفسي، مللت أن أكون ولا أكون في آنٍ واحد، مللت أن أكون امرأته، معشوقته وعدوّته في الوقت نفسه، أعيتني الدموع ويئست من البكاء والأنين في رجع صدى لا يسمعه أحد غيري.

حتى إذا جاء يعتذر، لا يعتذر بخضوع العاشق ولا يدرك بأن العاشقين تجاوزوا الكرامة وفي ظنه أن الكرامة أمر لا يجب التنازل عنه... آه يا رئيفي القاصر ألا تدري أن العاشقين لا يدخلون في قواميسهم مصطلحات الكرامة. لطالما بقيت مسألة الكرامة مُعضلة في طريق العشاق.

لماذا تتركني كسلسلة وقعت على الأرض فتهشمت وتفتّتت وداستها مئات الأقدام؟

لم أقدّم لك إلا الحب، ولم أبحث إلا عن مثله. توقفت مع نفسي كثيراً أفكّر في اقتلاع هذا الألم من جذوره بحلوه ومرّه، ثم أعود إلى

نفسي فأقول: «هو في غربة ولا أعلم ظروفه وهو صادق بالتأكيد».
لقد بات اختلاق الأعذار هو العزاء الوحيد في هذه المواقف.

(٦)

الحب يجعل المرأة تشعر أنها جميلة. يكفي أن أنظر إلى نفسي حتى أتذكر كيف كان رئيف يتأمل تفاصيل وجهي وجسدي بإعجاب ودهشة. وكيف كان يتغزّل بعينيّ قائلاً إنهما أجمل عيون النساء جمعتا البراءة والإغواء، حتى رأيت في نفسي أجمل نساء العالم حيثما كان معي. عشت الصوفية مع رئيف كإله عبدته ليرضى وقرّبته ليفسح لي في نعيمه، أصلّي من أجله وأدعوه ليصفح عن زلاتي، أسجد له ومن رهبة الإله أبكي فأستحضر كل خشوع العابدين المتذللين الطائعين.

أشعر بأنه يراني في كل مكان وأنه معي أينما كنت. حتى عطوري أنتقي منها ما يعجبه، وكذلك صابوني وأدواتي، وأقلامي، وقمصاني الحمراء اشتريتها لأجله وأرتديها لأنها تعجبه، وهو بعيد كان الأقرب إليّ.

قال لي ذات مرة ونحن في جولة في محلات هارودز:

«لماذا لا تختارين اللون الأحمر سيكون جميلاً عليكِ؟».

قلت: «أحب رؤية هذا اللون على الأخريات، لكني لا أحب ارتداءه».

فجاء ردّه وعيناه ترتفعان وتنخفضان بين تفاصيل جسدي:
«ستكونين مغرية باللون الأحمر».

لم يكن يتحدث عن إغرائي كثيراً، ولا عن أنوثتي. وفي أحيان كثيرة كنا نتعامل كزميلين أو صديقين وأحياناً كزوجين مضت على عشرتهما سنوات.

كانت عباراته الغزلية محدودة جداً لذا لا يتردد في ذاكرتي سوى بضع عبارات أعزّي بها نفسي وأسترجع بها أنوثتي التي لم تعد حاضرة في حياتي بدونه.

«ثق أنك لن تجدني حين يروقك أن تشغل جوّالك وتسلّي «ماسنجرك» فأنا لست محظية وقتك الفارغ من منتصف الليل، وأنا واثقة بأنك أكثر انشغالاً من أن تضيّع وقتك معي. احذفني من هامش جدولك المزدحم بالمعجبات فأنا لن أكون من ضمن القطيع مهما حصل. ولست بعد اليوم أطمح إلى رجل ينتشلني من وحلي. اتركني دون أن تبحث عن أدلّة براءتك، وشكراً لأنك جعلتني أخيراً أكرهك».

أرسلت له هذه الرسالة وأنا في قمّة أوجاعي، ولا أختلف أبداً عن ذلك العصفور الخمري الصغير عندما سالت منه دماء أكثر من حجمه وجلست قربه وأنا صغيرة أبكي من شدة ألمي عليه حتى لفظ روحه، فحملته ورشقت على جسده قطرات الماء وجهزت له قبراً يلمّ أوجاعه. على أني لم أجد أثناء نزفي حتى من يشفق عليّ. ليس لدي أحد سواه وأنا أفقده، ولست أفقد حبيباً فحسب بل صديقاً وزميلاً

وأباً وابناً ودمي الذي يبث الحياة في عروقي. كل هؤلاء أفقدهم دفعة واحدة؟ «صعب» صرخت وأنا في غرفتي: صعب.

ـ طرقات متلاحقة ـ والدتي من خلف الباب، صحت بها: «ارتاحي يا أمي كنت أحلم»!!

جاءت الرسالة بعد عودته إلى الرياض بثلاثة أشهر. ومنذ عودته وصلت تدريجاً إلى حد اليقين أن حبيبي رئيف ما زال في لندن أما هذا الرجل فلا يمتّ إلى رئيفي بصِلة ولا يمت إلى الحب ولا العشق ولا أي شيء من أنفاس الحياة.

لم أكن أكثر من نزوة لرجل عبرت على سريره عشرات النساء قبلي وستعبره العشرات بعدي. لقد اعتادت الحياة أن تقلب الأيام على رأسي فكما صنّفت الخلق بين شقيّ وسعيد، منحتني على شحّها شيئاً لم أذقه، ولأيام صدّقت نفسي بأني انتقلت إلى الشق الآخر وما أنا في الحقيقة إلا امرأة تغوص في شقاء الأيام.

أشعر أحياناً بأني أبالغ في وصف الجفاء المفاجئ من رئيف. في هذا اليوم جاء صوته مفعماً بالحنان فأعاد لي حياتي مجدداً بعد أن قذف بي إلى قبر الدنيا، بكيت وبكيت ولم أقوَ على إيقاف البكاء، وكل قراراتي بإيقاف هذا الحب وإيقاف التواصل معه تلاشت مع ظهور اسمه على شاشة هاتفي:

«رئيفي أنا».

وهنا تأكدت أن أغنية أم كلثوم لم تكن إلا حقيقة عشاق عندما قالت: وقابلتو ونسيت إني خاصمتو، ونسيت الليل اللّي سهرتو،

سامحت عذاب قلبي، قلبي وحيرتو، ما اعرفش ازاي أنا كلمتو.

نعم يا «رئيف» ما اقدرش على بعد حبيبي. ناداني «توتو، توتو» اسم «الدلع» الذي يناديني به على الرغم من أنه لا يمت إلى اسمي بصِلة.

ـ أعلم أنك تتساءلين عني؟

قاطعته:

«أين رئيف لندن؟».

ـ موجود ما زال يحبك يا توتو بل ويحبك أكثر من أي وقت.

وأكمل:

ـ أعذريني يا حبيبتي فما تجاهلي لكِ إلا حدّاً قرّرت أن أضعه لجنونك.

ـ أشتاق إلى رائحتك يا حبيبي.

ـ وما الحيلة يا توتو لا تنسي نحن في الرياض ولسنا في لندن.

ـ سأشمّك ولو علمت أن رائحتك هي آخر ما سيملأ ذرّاتي.

ـ كوني متروية يا حبيبتي، الوضع خطر جداً، الرياض بلد ليست كأي بلد آخر. هنا رجل الهيئة الذي بإمكانه أن يعتقلك وأنتِ تأكلين.

ـ هاه قلتها، إذن لنلتقي في مطعم واتر ليمون سيسرّني تناول الطعام معك يا حبيبي، المطعم عائلي محترم، ولن ينال منا أي من الأوباش في هذا المكان.

ولم يكن أمام رئيف المشتاق إليّ أيضاً غير الرضوخ لطلبي.

ـ على مسؤوليتك.

ـ نعم يا حبيبي على مسؤوليتي، سمعت عدداً من الصديقات يلتقين في هذا المطعم بزملاء وأصدقاء وأكّدنَ لي أن ليس هناك من خطورة.

لم أكن أقل من أي عصفور محلّق في سماء الرياض في نهار صاح، يجاهد من أجل حريته وانطلاقه برغم كل الظروف الخانقة حوله.

منظر الطيور يثير دهشتي خصوصاً عندما أقارنها بطيور أوروبا التي تعبث في السماء بمتعة، في حين تبقى طيورنا في السماء من أجل أن تستمر في الحياة وإن كانت في واقعها لا تشعر بهذه الحياة.

«لالالالا... لا أقبل أن أكون كعصافير الرياض في هذه اللحظة عليّ أن أستمتع بخيالي مع طيور أوروبا».

أقولها وأنا أستحمّ..

أغرقت جسدي بماء العطور التي جلبتها خصّيصاً من لندن لعينَي رئيف. وما إن انتهيت من الحمّام حتى بدأت أدلّك هذا الجسم بعطور الحب وكريمات الاسترخاء، واتصلت بالكوافيرة كي تأتيني على عجل، برغم علمي أن رئيف لن يشمّ جسدي ولن يرى شيئاً من شعري في ذلك المطعم المغلق، إلا أنه من تبجيل الحب أن أظهر أمامه هكذا.

حان الموعد وكان أصعب من أي موعد. سبقتني لهفة الشوق، وتجادلت مع كل هزّات الخوف والرعب التي ما إن تنتابني حتى يطردها الحب:

«لا أشعر بالأمان إلا مع رئيف حتى وإن كنت في وسط الرياض لا يهم».

بقي واقفاً ينتظرني على رصيف شارع التحلية حيث يقع المطعم، لم نتمكن من أن نمارس شيئاً من الشوق.

لم يكن بإمكاني تقبيله وضمّه ولا حتى مصافحته، وما إن اقتربتُ حتى سار أمامي كأي رجل سعودي يمشي في الأمام وزوجته في الخلف. صعدنا السلم نحو صالة العائلات، وشعرت بالثواني طويلة جداً من وقت نزولي من السيارة حتى وصولي إلى مائدة الطعام التي تحيط بها حواجز خشبية من كل اتجاه تمنع العائلات من رؤية بعضها بعضاً وهذا هو النظام السائد في مطاعم الرياض إرضاءً للسلطة الدينية التي حاولت لسنوات منع المطاعم من فتح صالات للعائلات اقتصرت على مطاعم الفنادق تحت رقابة مشددة، وعندما أرادت السلطة السياسية أن تفسح المجال لدخول العائلات إلى المطاعم استطاعت توجيههم وفق ما تراه.

ما إن جلستُ على الكرسي حتى رفعت الغطاء عن وجهي فحدّق بي ونسيَ أن النادل يمدّ له يده بقائمة الطعام، التفت نحوي غافلاً عن النادل حتى تنبهت للخطر...!

فمجرّد أن يشكّ أي عامل في المطعم بأننا لسنا زوجين قد يعرضنا للخطر، خصوصاً وقد جرت العادة على تجنيد عدد من العاملين في المطاعم والفنادق والشقق المفروشة للإبلاغ عن أي حالة مشتبه فيها وفق معاييرهم.

جمعني ذات مرة لقاء بزوج إحدى صديقاتي، وكان يعمل مديراً للتسويق في أحد فنادق الرياض، فأوضح لي أموراً عديدة عن تجنيد رجال الهيئة لهؤلاء العاملين، واعتقدت أن الأمر مجرّد إغراء مادّي لرجل باع ضميره وإنسانيته لكن سرعان ما أدركت أن الأمر أكبر من ذلك.

«يا ستّ سارة»... يقولها بلهجة أردنية.

ويكمل:

«الموضوع أكبر من هيك، هاظول يا ستي إذا مرّ شهر ما إجاهم بلاغ منا بيجوا عندنا بالفندق، وبيمسكوا كم واحد من الموظفين وبيرموهم بجنطة الجيمس، ويبقوهم عندهم كم ليلة لحد ما يأدبوهم، والرجال من هظول جاي يعيش ويجمع لو قرشين ما بدو دوشة راس، طول ما هوا بيبلغ طول ما بيكون عايش مرتاح».

ألهذا الحد وصلت بهم السفالة؟ هم لا يشترون الضمائر بل يجبرون الإنسان على بيع نفسه؟!

طلبت من رئيف أن يختار لي طبق العشاء فهو يملك خبرة أكثر مني بالمأكولات والمطاعم، فطلب لي «ستيك بالماشروم» وطلب لنفسه «دجاج فاهيتا»، على أن نأكل معاً الطبقين.

ما إن وصل الطعام، والأبخرة ترتفع من الحرارة، حتى غرست سكيني وشوكتي والتفت بحركة سريعة يمنة ويسرة:

«افتح فمك بسرعة».

طلبت هذا على عجل قبل أن تلتقطنا عينا النادل، إذ على الرغم

من وجود أربعة حواجز تحيط بالطاولة فإن بعض العاملين هوايتهم المراقبة من خلف الحاجز واستراق النظر من أعلى «يا مجنونة» قالها وهو يضحك وفمه مملوء بالطعام، فرفعت كتفيّ للأعلى ووضعت الشوكة على الطبق وحدّقت في عينيه وأنا أبتسم:

«الآن عرفت أني مجنونة... وسفري من أجلك إلى لندن ألم يكن جنوناً رسمياً؟».

قبل أن أكمل الكلمة الأخيرة سمعت الأصوات تتعالى في المطعم وفتيات صغيرات يصرخن: «الهيئة» لم نتحرك ثبت كل منا في مقعده ولم تمضِ ثلاثون ثانية حتى وجدنا من يسحب الحاجز ويرميه على الأرض، وأنا ورئيف نشاهد ما يفعل بدهشة:

«قم معنا يلّه».

ردّ عليه رئيف بهدوء: «إلى أين؟ ولماذا؟».

«لا تكثر الكلام قم قدّامي لا أسحبك».

بالهدوء نفسه قال رئيف: «من فضلك أودّ معرفة السبب؟».

«قم يا علماني قدّامي يلّه ما نبِي كثر حكي وبتعرف السبب».

نهض ملتفتاً نحوي: وزوجتي؟

«لا والله زوجتك خايف عليها، اللّي عنده محارم يخاف عليهم ما يجيبهم هالأماكن متبرجات».

وأكمل وهو يشير بسبّاباته نحو وجهي: «تبي تجي معنا بالسيارة الثانية».

حاول رئيف المقاومة ورد على رجل الهيئة: «ليس من حقك أن

تتصرف معي بهذه الطريقة أنا لم أرتكب جرماً، كل ما في المسألة أنني جئت وزوجتي لتناول العشاء».

قاطعه رجل الهيئة: «أو هوووووو........ لا تكثر الكلام قم وامشِ معي ولا نسحبك، بالمركز نعرف هي زوجتك ولا لا».

علا صوت رئيف: «لا تستطيع أن تسحبني، سآخذ زوجتي وأغادر المطعم. وهذا عنوان عملي إن كنت مشتبهاً فيه لديكم بأي جريمة يمكنك مخاطبتي واستدعائي أما هذا الأسلوب فلا يمكن أن أتقبله».

ارتفع صوت رجل الهيئة وبدأ بالصراخ فيما انقضّ على رئيف أربعة من الملتحين وخامسهم جندي ببذلة عسكرية فكتفوه وسحبوه وأنا أبكي فإذا بسادس يجرّني من عباءتي:

«قدامي ياالداشرة».

رأيتهم يلقون برئيف في مؤخّرة سيارتهم الصالون، حملوه ورموه أمامي وكأنه «خروف».

فزعت من هذا المشهد، وصرخت لعلّ الناس تنجدنا، فهوى بيده على وجهي حتى شعرت بأني فقدت البصر.

ثم إنهم سحبوني في اتجاه سيارة ليموزين صغيرة وأنا أصرخ منادية:

«رئيف لا تتركني أنا خائفة».

ومضت السيارة التي نقلوه فيها، جلست أنا على الأرض في مقاومة مني لقوتهم. فراح الرجل يجرّني على الإسفلت حتى رأيت دمي يجري عليه؟!

ألقى بي في السيارة الصغيرة وأمسك بالباب وأغلقه خوفاً من هروبي أثناء السير، ثم أومأ بيده إلى زميله فركب في المقعد الأمامي بينما ركب الآخر إلى جانبي في الخلف وصار يضربني طوال الطريق على جسدي في كل اتجاه ونال رأسي النصيب الأكبر من الضرب حتى فقدت الوعي.

صحوت بعد أن وقعت على الأرض أثناء سحبي من سيارة الليموزين التي توقفت في فناء منزل كبير تبيّن لي أنه «مركز الهيئة».

أخذت أتلفّت بحثاً عن رئيف. فإذا بأحدهم يلفّ عباءتي على جسدي حتى عصرني بها عصراً وجرّني:

«إمشي قدّامي يا منحلّة».

أدخلني إلى غرفة صغيرة ليس فيها سوى مكتبة مغطاة بالغبار ومفروشة بسجادة حمراء، تظهر فتلة السجّاد من بينها من شدّة الدهس.

لا أتذكر كم مضى من الوقت لي في هذه الغرفة وحدي، فالوقت كان من أصعب المعايير التي يمكنني إدراكها، بعد أن جرّدني رجال الهيئة من حقيبتي وجوّالي وساعتي وحتى حذائي، لأكون أمامهم مهدورة الكرامة بإحكام.

لعلّها خمس عشرة دقيقة، أقول «لعلّها».

وإذا بأحدهم يدخل من الباب، كنت واقفة فجسدي أبى أن يلمس هذه المساحة المخصّصة لإهدار كرامتنا.

«استري نفسك الله يلعنك ويلعن أمثالك يا حريم السوء».

هكذا قالها وجاء ردّي سريعاً:

«وش طالع منّي».

لم أكمل بعدُ الحرف الأخير من «مني» إلا وقدمه الغليظة تنشب في بطني، وهكذا انهالت عليّ الضربات واحدة تلو الأخرى في المكان نفسه، حتى أسقطتني ضرباته على أرض الكرامة المهدرة، فتشرّبها جسدي بأكمله، ورأسي الذي تطنّ به أصوات المقهورين قبلي وبعدي في هذه الغرفة، وكذلك حواسي جميعها تشرّبت رائحة الظلم.

وقبل أن يتركني رمى بكومة أوراق على الأرض وخرج، ليدخل آخر منهم مؤنّباً:

«وش فيك الله يستر عليك زعّلتي الشيخ؟».

حمل لي في نبرته ما يوحي التعاطف فهو الوحيد حتى الآن الذي لم يشتمني.

«الله يجزاك خير ما قلت شي» هكذا أجبته بانكسار.

أجابني: «أنا حاس فيك وأدري إنك ودك الحين ترجعين بيتكم».

يا إلهي «بيتنا» هذا المكان الذي أشعر هذه اللحظة بأن دهوراً تفصلني عنه، وجه أمي، يلوح أمامي، وأقول...

«إيه، إيه، أبي أرجع الله يوفقك ويخلّيك طلّعني».

ابتسم وقال:

«الحين بتطلعين إن شاء الله، بس وقّعي الله يستر عليك على هالأوراق علشان لا تتأخرين».

بلهفة قلت: «هات، هات».

بدأت أقرأ، فتغير حاله وأبدى امتعاضه:

«شكلك مانتيب مستعجلة».

وأردف:

«وبعد تبين تقرئين؟. بسرعة وقّعي وخلّينا حنا بعد نمشي ورانا شغل».

على ماذا أوقع ؟ وعلى أي شيء أدوّن اعترافاتي بجرائم لم أرتكبها، سلسلة طويلة من التهم منها ما سمعت عنه في مجتمعي، ومنها ما لم أسمع عنه سوى في الأفلام العربية القديمة.

ما يحصل في هذه الساعة هو جريمة كبرى، ليست بحقي فحسب بل هي جريمة بحق الإنسانية، وبحق وطني، وبحق الدين الإسلامي الذي يتصرفون باسمه، ويريدون توظيفه في إهانة البشر وسحق كرامتهم.

«لن أوقّع ، لن أوقّع يا شيخ، لن أوقّع يا حامي الإسلام».

ما إن أعلنت له رفضي، حتى شعرت بصفعة قوية لا أدري في أي جهة من رأسي استقرت. فتح الباب بعصبية شديدة، ونادى بصوته الأجشّ العالي:

«يا شيخ عبيد، يا شيخ عبيد، تعال نبي فزعتك».

ودخل الشيخ عبيد الذي جاء متسلحاً، فمن الواضح أن الأدوار مرسومة، ولكل واحد في هذا المكان مهامّه.

كان يدرك الشيخ عبيد أن المعونة المطلوبة منه ستكون من نوع

آخر، فهو يحمل بيده العدة: عصا خشبية عريضة الرأس دقيقة الساق، ملفوف عليها لاصق أسود، قامت بتحيتي على أكمل وجه، والرأس بالرأس، فأسقط ضربات تلو أخرى برأسها على رأسي. وأراد أن يستمتع بيده فتارة يضرب بالعصا وتارة بيده حتى غطّت الدماء وجهي ولم أعد أعي ما يحصل.



(٧)

«إرحل إلى الأبد»

بهذه اللهجة العدوانية كانت تصرخ نورة بعد عودتها إلى العنبر. تركتها لتهدأ، واقتربت منها بعد أن استنفدت صرخاتها كل الدموع.

ذلك الرجل الذي ارتبطت به لسنوات عديدة لم تذق فيها طعم السعادة، اقتنعت بعد الخبر الذي وصل إليها أثناء الزيارة العائلية بأنه طلّقها أخيراً بعد أن استولى على كل ما تملك من منزل وأثاث وأموال جمعتها بعد رحلة طويلة في الخدمة بوزارة التربية والتعليم.

شعرت بالراحة وبأنها قادرة على تجميع نفسها من جديد وقالت:

«ياسر ليس إلا ورقة مزّقتها ولم أكتفِ بتمزيقها وإلقائها في سلّة المهملات بل أحرقتها بالنار التي أشعلها في صدري. استطاع بكل براعة أن يجعل نفسه عدواً لدوداً، أن يكون شيئاً كريهاً لا أحب تذكّره».

وتكمل بمرارة، لا تستشعرها إلا أنثى ذاقت من كأسها:

«إنها غلطة الزمان التي تطارد فاعلها. ارتبطت به رغم عدم موافقة أهلي فأي حد من الحدود يبتر هذه الغلطة من حياتي ويريحني. كان

إنساناً جميلاً ومميزاً تزوجته لحاجة لم أحدّدها ولم أكن في تلك الفترة قادرة على تحديدها، المهم أني وجدته قد سدّ ثغرة واسعة في حياتي التعيسة. ومنذ أن أفقت من هذه الغيبوبة تيقنت بأنه رجل غير مناسب، فتوجّهت إليه بكل صراحة إلا أن غروره واستعراضه المبالغ لنفسه أبى أن يصدّق أنه ليس الرجل المناسب لي».

تتحدث نورة، وتلتقط أنفاسها وتتوقف لثوانٍ ثم تسترسل مجدّداً:

«حاولت تدارك الأمور وشعرت بجرحه فأخذت عهداً على نفسي أن لا أتعامل معه خارج حدود الإنسانية التي تفرضها عليّ آدميتي إلى حين جعلني أنسلخ عنها وأرمي بكل الإنسانيات عرض الحائط. ليس سهلاً على الإنسان أن يجعل الآخر يحبه بينما من السهل جداً أن يجعله يكرهه، وهذا ما تفنّن فيه ياسر. ظاهري وباطني وقلبي الصخري وعصا الجلاد وأدوات مستقرة في ذاتي ترفضه وترفض وجوده أياً يكن شكله».

«نعم كنت أخونه، وبكل قواي العقلية سأخونه! لأنه رجل لا يستحق بكل بساطة إلا الخيانة».

هكذا كانت تعترف أمامي وأمام السجينات، بعضهنّ يعتبرنَ كلام نورة وقاحة، أما أنا فأنظر إليها نظرة إكبار إذ يكفي أنها متصالحة مع نفسها، وصراحتها تعكس واقعاً وليست كالأخريات اللواتي يتحدّثن بعفة ومثالية ولسنَ في الواقع سوى عاهرات.

تحدثت نورة بنبرة عداونية شديدة وكانت تضغط بفكّيها على حرف الخاء. أرادت أن تقول أشياء كثيرة بهذه العبارات الصغيرة.

احترمت نورة كثيراً فهي من القلائل في العنبر اللواتي يعترفنَ بما فعلن فمعظم السجينات يدّعين البراءة، والعاشقات منهن فقط يتحدثن عمّا تسميه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «جريمة» لأن المرأة التي تدرك جوهر الحب تعي جيداً معانيه التي تتكون منها مشاعرنا واستجاباتنا لهذه الحياة وفي كل الظروف.

سميرة التي اشتهرت بلقب «فتاة عسير» تقطن الزنزانة منذ أكثر من ست سنوات لجريمة قتل اقترفتها بحق الرجل الذي سلخ عنها آدميتها وألقى بها خارج دائرة الإنسانية. يريد القاضي إعدامها وأهل القتيل ينتظرون موتها وما هي إلا امرأة قتلت رجلاً صخّر قلبها، ولم تفكّر آنذاك إلا أن تتخلص منه بعد أن أقلق حياتها وأقضّ مضجعها انتقاماً لرجولته بعد أن تقيّأته أنوثتها. سميرة لم ترتكب جرماً ولم تقتل حتى وإن أطلقت عليه رصاص البندقية ورفعته بذراعيها النحيلتين لتحرقه، فقد أحرق قلبها قبل أن تحرق جسده وطعن أحشاءها قبل أن تُفرغ رصاص البندقية في أمعائه، ويأبى الذكور إلا أن ينعتوها بالقاتلة، ولكن أي جريمة ارتكبتها أمام جرائم رجل اغتال فيها روح الأنثى؟

هذا الشبح المخيف الذي يطارد السعادة ليس له إلا الموت. هذا ما دار في ذهني وأنا أصارع الهم والبلاء الذي أعيشه بين قصص السجينات كل يوم.

رجل يبتلي كل يوم امرأة، ورجال يعتقدون أن الرفض يستدعي دفاعاً عن الرجولة، مع أن الرجولة الحقيقية لا يتم البحث عنها

بتعاسة الآخرين وإقلاقهم. الرجولة الحقيقية في عزّة الرجل وكرامته. أن يحفظ هذه الكرامة، أن يستردها لنفسه فترتد إليه رجولته. هذا النوع من الرجال لا يدركون أساساً لكل ذلك معنى، فهم شهوانيون، ورغبتهم المبالغة في تملك الآخرين لا يملكون أمامها شيئاً ولذلك فهم يدوسون كل القيم والمبادئ حتى تحتقرهم الأنثى وتزداد لهم احتقاراً، حتى تحتقن كرهاً لا يفرغ برصاص بندقيته ولا بنيران سميرة.

كل الوسائل استنفدتها نورة مع ياسر، فلا فائدة من رجل ماتت فيه القيم الأساسية لمكوّنات الإنسان. أنفاسه تجثم على صدرها، سمعت تفاصيلها واضحة وهي تروي لي يوميات لا تنتهي، وعشت مع كل هذه التفاصيل حتى شعرت بلهاث أنفاسه في أذني صاخبة ملطخة بالقذارة ألمس فيها حدة الأنا وغياب الأمل، وهو مع هذا الغياب لا يأبه فإما أن تكون نورة الأداة المسحوقة لشهواته، وإما أن يتحول إلى مارد، بصورة مغايرة لتلك التي نحلّق معها في فنتازيات الأفلام، وإن كانت قريبة، إلا أن المارد هنا هو من يرهن نفسه لتعذيب الآخر.

هذا هو «مارد» سميرة أيضاً، لوعة الوجع وفاجعة الرحيل من دنيا الناس وانقطاع الأمل وتلاشي الرجاء بكل أصنافه من تحت أقدام المارد فما كان له إلا أن يموت. ولو لم تقتله سميرة لكان الحكم العادل بحقه أن يموت بيدي سميرة. هكذا تكون العدالة.

منذ دخولي إلى السجن وحتى بعد مرور شهر بأكمله لم أكن

مستوعبة تماماً ما يحصل، أو الأصح لم أفهم ما الذي يحصل، فجأة تغير كل شيء، انتقلت من عالم إلى عالم دون أن أتطرق إلى التفكير في حيثيات الموضوع نفسه، والوقت يمر ببطء شديد وبسرعة كبيرة، وكل شيء متناقض وغير مفهوم.

حتى أنا لم أستوعب بعدُ ما هي القضية التي من أجلها أودعت السجن؟!

لم أفهم أيضاً موقف أمي فحتى الآن لم ألتقِ بها سوى مرتين، ولم يكن بمقدوري حتى أن ألقي في أحضانها روحي الفاترة إذ كنت أتحدث معها وشباك طويلة تفصل بيني وبينها، وأصوات الزوار تتداخل وأصوات السجينات.

كل هذه المتناقضات الجديدة في حياتي، ضجة وهدوء، قبول ورفض، حياة وموت.

مرة واحدة جرى التحقيق معي بعد وصولي إلى السجن بأسبوع ولا أدري ما الذي سيحصل. توقعت أن ينتهي كل شيء بمجرد التحقيق. وكان الخبر السعيد الذي أبهجني عندما نادت السجّانة على اسمي معلنة لي وقت التحقيق مع الضابط.

طارت ساقاي مع هرولتي في ذلك الممر الطويل. وتحولت عتمة ذلك الممر إلى هواء أخذته بملء رئتيّ. وصلنا أنا والسجانة إلى بوابة السجن الداخلية المفصولة إلى قسمين، قسم للعبور إلى الخارج وقسم للعبور طويل تحفّ به الشباك بمحاذاة فناء السجن، عبرنا أبواباً كثيرة حتى وصلنا إلى باب غرفة التحقيق.

هذه الغرفة صغيرة فيها نافذة تطل علي غرفة صغيرة أخرى هي التي يجلس فيها المحقّق.

قرأ العسكري نصّ بيان التوقيف الخاص بي ثم بدأ التحقيق. وفي الدقائق الثلاث الأولى أدركت أني لا أواجه تحقيقاً بل إدانة تامة، ولم يكن بإمكاني الدفاع عن نفسي أصلاً.

«اللقاء والحب» جريمة يجب أن أقرّ بها. لم أسمع في حياتي كلاماً بذيئاً كالذي سمعته من ذلك المحقّق الذي يجلس إلى جانبه شيخ يُعتبر في عُرف القانون الشرعي في بلادي بديل المحرم. عبارات أصعب من الحياة المرّة نفسها. كان يصف لي العملية الجنسية بألفاظ بذيئة ويتكلم موجّهاً حديثه إلى عضوي التناسلي، ومن ثم يبدأ بإطلاق أسئلة أكره أن أتذكرها. ومع هذا كلّه انتهى التحقيق من دون أن يسمع مني كلمة، انتهى إثر اتصال بينه وبين أحد أعضاء الهيئة:

«على أمرك يا شيخ نسجنها ونحوّل أوراقها للقضاء».

(٨)

لم أرغب في توضيح أموري لأحد. كل الحلول التي خطرت لي لم تكن حلولاً حقيقية ولا مفاتيح نعلّقها على مشكلة فتحلّها. ضوضاء في رأسي، تزدحم أمامي وجوه كثيرة جميعها بشعة لا فرق بين الملتحية منها ولا الحليقة، لا الإسلاميين ولا الليبراليين، ولعلّ الفارق الوحيد بينهم الذي يجعل الليبراليين أجمل صورة في عيوننا أنهم لا يملكون سلطة في البلد تجعلهم يبطشون كما هو حال المتأسلمين. هناك كثير من الأوصاف تجمع بين الصنفين في ما يخصّ المرأة بالذات فكلاهما يراها وعاء للمتعة. الصنف الأول يغطيها بكل ما أوتي من أردية حتى لا يؤجّج هذا الوعاء غرائز الرجال، والثاني يريد أن يكشفها أمام الكل ليُري الآخرين حجم فحولته ووعاء شهوته. الأول يرى أنها ملك له وحده من حقه ابتزازها ومن حقّه قمعها ومن حقه إقصاؤها حتى لا يتطاير الشر، والثاني يرى أنها ملكه أيضاً ومن حقّه قمعها ومن حقّه إقصاؤها كذلك. ولكنهما يختلفان من حيث التطبيق فكلّ يطبّق رؤاه من زاويته. وينفرد الصنفان بقدرة هائلة في تطبيق قوانينهما ضد المرأة. باسم الشريعة

الإسلامية يستطيع الأول أن يحكم عليها بالحبس والجلد وحمل العار مدى الحياة. وبالنسبة إلى الصنف الثاني فإن العلمانية الفكرة السامية التي أحلّت العدل بعد بطش الكنيسة في أوروبا دمّرها دعاتها من السعوديين واختلقوها من داخلهم لداخلهم.

وجوه العالم الحقيقية بدأت تتضح لي أكثر فأكثر وأنا خلف القضبان، حيث وصل إلى مسامعي مدى التهم التي ألصقت بي وممّن؟ إنها من أكثر الناس ترديداً لشعارات الحرية وأحقية المرأة في اختيار من تحب، وحريتها في الخروج معه. ردّدوا هذه التهم وقذفوني بأسوأ العبارات وهم ملتفّون حول كؤوس الخمر ويد كل منهم تطوّق خاصرة زوجة صديقه!! أما المتدينون أو «الملتزمون» كما نطلق عليهم فالشرف لا شيء لديهم والقذف أسهل على ألسنتهم من «السلام عليكم»، وبعدها كفّارة المجلس، وجزاك الله خيراً يا شيخ.

وجه رئيف وحده كان أنيسي في غربتي. في السجن غربة حقيقية لم يذق طعمها لا من هجر وطنه ولا من اكتوى بقهر اللجوء إلى المخيمات.

السجن هو أمرُّ مكان في هذه الدنيا. يُنسيني وجه رئيف طعم ذلك العلقم عندما يمرّ بمخيلتي يوم التقيته وأنا خارجة من محطة «ماربل آرش» وحين أستعيد تلك الذكريات أرى تفاصيل أكثر شمولاً من ذلك الوقت. شدّني منذ اللقاء الأول. سحرتني تلقائيته التي جاءت من رجل ليس لديه ما يخاف منه أو يخفيه. كلّمتني عيناه بتعابير صادقة ولكن بنبرتين مختلفتين، فأحياناً أسمع صوت الطفل المدلل

أو الذي يرغب في التدليل، وأحياناً أصغي إلى نبرة الرجل الذي يحمل على كاهله مسؤولية ثقيلة. ومنذ الدقائق الأولى شعرت بالانتماء إلى الرجل، شعرت بالأمان. حتى وأنا هنا ولا أعرف شيئاً عنه يبقى في قلبي وإلى الأبد.

كلّما مرّت الأيام، وأنا لا أعرف أي جريمة ارتكبت ولا أي عقاب سينالني ساءت أحوالي النفسية أكثر وأكثر. لم أعد أتحمل الطعام ولا حتى ما يشد جسدي. كسبت الكثير من التعاطف، عوّضني ربي بأخصّائيات وموظفات يدركن معنى «الظلم» وإن كنّ لا يصرّحنَ بذلك فإن تعابير وجوههن تكفي لإيصال هذه الرسالة. الأخصّائية النفسية التي تتابع حالتي شعرت بخطورة الحالة التي وصلت إليها خصوصاً بعد أن قررت الإضراب عن الطعام رفضاً لما يحصل لي، فما كانت استجابة الضابط المسؤول عن سجن النساء إلا معاقبتي بزجّي في زنزانة انفرادية.

أنا التي تعوّدت المفارش الحريرية، أنام الآن على مرتبة قد أكلت الفئران معظمها ولم أقوَ على مدّ قدميّ الصغيرتين، فما إن يستقم جسدي حتى تسقط قدماي في فتحة المرحاض الأرضي.

وباجتهاد من موظفات السجن، جلست الأخصّائية معي أياماً حتى استطاعت إقناع الضابط بعودتي إلى العنبر.

وعدني بإيكال بعض الأعمال إليّ حتى تتغير نفسيتي التي بلغت حدّ اليأس. وبعد أن تبخّرت كل قناعاتي بإمكان الإقرار بأني لست مجرمة أستحق الوقوف أمام القضاء، بتّ أنتظر الوقت الذي أمثل فيه

أمام المحكمة لأقبل بأي حكم. المهم أن لا أبقى هكذا دون صورة واضحة لمستقبل عشت كثيراً لا أرى منه أي شيء. ولا يبشر بأي ملامح. في السجن يشعر الإنسان بأن الحياة قد توقفت، والأرض لم تعد تدور، وكل شيء يتغير. حتى أنا لم أعد أتذكر ملامحي إذ لا توجد مرآة يمكن من خلالها أن أستعيد ملامح وجهي التي شعرت بأنها تغيّرت، وكثيراً ما كنت أتحسس وجهي بيدي لأتأكد منها.

أوكلت إليّ الأخصائية مهمة تنظيم جلسة الأمهات السجينات مع أطفالهن، حيث يحضر الأطفال مع أخصائيات الدار التي يعيشون فيها بعد انفصالهم عن أمهاتهم. وعندما حانت ساعة الزيارة استدعتني الأخصائية من العنبر وأعطتني الكثير من التعليمات حول تنظيم الجلسة حدّدت لي مهامي بالتفصيل موضحة أن كثيراً من المشاكل قد تحدث بين الأمهات في هاتين الساعتين بسبب الأطفال، وخصوصاً أن لكل أم عدداً كبيراً من الأطفال.

وقبل بوّابة السجن يقع مكتب المديرة التي أطلت علينا بوجهها القمري الباسم وبكل تلقائية: «هاه يا سارة مبسوطة، الله يفرج عليك يا أختي».

كانت تراقب تنظيم خروج الأمهات إلى المبنى الخارجي الملحق بالسجن حيث خصّصت غرفة لهذا اللقاء الحميم.

هناك وقف عدد كبير من السجينات وكل واحدة منهن تحمل أكياساً ودمى وألعاباً وحلويات وأشياء كثيرة وفي هذه الأثناء اختفت المديرة وجاءت المسيرة منظمة تحدوها اللهفة بكل الاتجاهات. وما

إن انتصف عدد السجينات بعد عبور البوابة حتى سمعنا صوت المديرة تنادي: «نبّهي على سجيناتك فيه صحفية بتحضر اللقاء لا يتكلمون معها إلا بحدود المسموح» وردّت الأخصّائية ملتفتة برأسها إلى الخلف: «حاضر، حاضر».

وجهُ «خولة» لن يبرح ذاكرتي ما حييتُ. على تلك الأريكة الهابطة والتي خفضتها سنوات سجن طويلة عاشتها نساء خلف القضبان من أجل الحبّ، كانت تجلس، وتلملم بين أحضانها أمومتها، تحتضن «فاتن» طفلتها التي تزورها في السجن الذي تقضي فيه عقوبة العشق، أربع سنوات وسبع مئة جلدة.

حتى في سورة النور قد أمر تعالى بجلد الزاني والزانية مئة جلدة، ولا أدري كيف تضاعف العدد ومن أي شريعة جاء؟

على باب الحجرة الصغيرة وقفت الأمهات السجينات قبل أن يفترشن الأرض لمساحة قد تكون الأمومة فيها وحدها الحاضرة. لم تجلس على الأريكة القابعة في الجهة اليمنى من الحجرة سوى سجينتين يبدو عليهما أنهما عاشتا في رغد وافتراش الأرض بأمومة فوضوية لم يكن فكرة مرغوبة لديهما.

اقتربت نحوهما الصحفية، ولم يكن ترحيبهما بها على قدر ترحيب الأخريات اللاتي توسّمن فيها أمارات المنقذة المرجوّة. استأذنتْ وجلستْ وسط الأريكة بين السجينتين وقدّمت نفسها إليهما بأنها صحفية وترغب في إجراء حوار معهما. نفضت السجينة الجالسة على يمينها يديها ورفعت وجهها بابتسامة ساخرة:

«لا حوارات ولا غيره أنا قتلت بنت زوجي وما عندي استعداد أحكي للصحافة. يعني وش بيسوي لي الحوار أنا اعترفت إني قتلتها بالغلط وأنا أضربها وانتهينا».

في هذا المكان سمعت إحداهن تفاخر بأنها في السجن لأنها قاتلة لكنها لم تلوّث شرفها. حتى الأخصائية أوضحت لي هذا الأمر وبيّنت أن القاتلات وحدهنّ هنّ مَن يقف أهاليهنّ إلى جانبهنّ، أما سجينات القضايا الأخلاقية فلا يجدنَ من يقف إلى جانبهنّ. دخول المرأة السجن بتهمة أخلاقية يعني أنها باتت منبوذة مدى الحياة، وهذا ما يدفعها إلى امتهان الدعارة إذ لا خيار آخر للمرأة الموصومة فإن كانت موظفة فقدت وظيفتها وإن كانت أماً فقدت أمومتها وأهلها.

شاهدت جسد الصحفية وهو يتحرك لا إرادياً زاحفاً بطريقة لا تبدو واضحة نحو خولة. مدّت عنقها إلى الجهة اليسرى ومالت بجسدها مبتعدة عن السجينة القاتلة، وبصوت هادئ يوازي هدوء وجه خولة قالت:

«هل لي بأخذ حوار معك».

ردّت بامتعاض: «لن يفيدني الحوار وأخشى أن أقول شيئاً يكون ضدي وأنا بانتظار فرج الأيام لأخرج وأتزوج حبيبي».

ثم أدارت وجهها نحو طفلتها فاتن، فاستوقفتها الصحفية:

ـ هل أنتِ هنا بسبب الحب؟

ـ الحب اللّي حرموني إياه رجال الهيئة الله لا يوفّقهم.

لاحظت كيف شد الفضول الصحفية. طلبت منها التفاصيل وهي

تحدّق في عينيها فإذا بخولة تهم برواية قصتها وما إن بدأت الحكاية حتى وقفت في وجه الصحفية إحدى موظفات السجن قائلة: «مالك ومال القصص يا صحفية أنتِ جاية تكتبين عن زيارة أطفال السجينات لأمهاتهم».

ردّت بلطف:

«عفواً يا أستاذة أريد فقط أن ألمّ بالموضوع لأفهم. لن أكتب شيئاً عن قصتها وحتى لو كتبت فلن يُنشر شيء بدون إذن إدارة السجن».

أدارت الموظفة وجهها وهي ترفع حاجباً وتخفض الآخر استنكاراً ثم خرجت من الغرفة.

ـ هاه يا خولة تحدّثي.

ـ لا، أخاف أتكلم إنتِ وش تبين مني.

ـ خولة يجب أن تتكلمي. من حقي أنا أن أعرف ما الذي يدور في هذا السجن. قد لا أكون منقذة لكِ لكن صدّقيني قد تنقذين بحديثك الكثير من العاشقات بعدك.

بهذه العبارة لم تتمكن خولة من أن تقاوم، فإحساسها بالظلم ورغبتها في تغيير الواقع دفعاها مجدداً إلى الحديث.

ـ أول شي يا أبلى أبيك تفهمين شي مهم، أنا صحيح مسجونة بقضية أخلاقية لكن وربّي أنا ما أعرف ها لسوالف أنا حبيت شخص وهو حبني وتواعدنا على الزواج، وجسمي هذا ما حد لمسه غير طليقي وحبيبي، وأنا إذا عطيته حبيبي فهذا حقي وحقه. حنا نحب بعض وبنتزوج واللّي أخّر زواجنا طليقي اللّي أخذ عيالي وما ترك

عندي إلا الصغيرة وخفت أتزوج يحرمنياهم طول العمر فأجلت الزواج لحين يخلص أخوي معه ويرجع لي عيالي.

ـ هاه يا خولة وماذا بعد كيف قبض عليكِ رجال الشرطة؟

كانت تسبقها بالسؤال برغم استمتاعها بسماع التفاصيل ولكن بدا واضحاً خوفها من انقضاء مدة الزيارة قبل أن تصل إلى مرادها.

ـ أي رجال شرطة يا أبلى رجال الشرطة طيبين ما يتبلّون خلق الله ببيوتهم.

وبدأت تسرد تفاصيل القبض عليها. أسكن في شقة صغيرة استأجرها لي شقيقي أنا وطفلتي. كان الحب الذي يربطني بعامر أقوى من أن يبقى على الهاتف. وكنت بحاجة إلى حضنه وطبطبته ولمس كفّيه فلديّ من الهموم ما لا تقوى أنثى مثلي على حملها، فكان معي يدفعني إلى التعجيل بالزواج. وقد أنهينا بأحلامنا بيتنا الصغير وحجرة النوم. وكنا نتشاكس حول طفل الحب فهو يرى تأجيل الإنجاب حتى يكبر صغاري أما أنا فكنت أرفض بشدة وأهاجمه فرغبتي في طفل منه توازي أمومتي لثلاثة أطفال. زارني تلك الليلة بعد أن نامت سارة، وكانت من أجمل ليالي الحب التي عرفها عاشقان، ارتديت له ثوباً فيروزياً أظهر بياض جسدي وشعرت لأول مرة أنني أنثى.

قاطعتها الصحفية: «وماذا بعد هل دخل رجال الهيئة عليكما في المنزل»؟

ـ بعد أن انتهت ليلتنا ودّعته على باب المنزل وطبع على خدي قبلة ما زلت أحمل منها حرارة أنفاسه باقية لتهوّن عليّ كُربة السجن.

وبعد أقلّ من خمس دقائق قُرع جرس الباب فاستغربت: هل يا ترى نسي شيئاً وسألت من خلف الباب: من؟ أجاب: أنا عامر افتحي الباب. وما إن شرعت بفتح الباب بهدوء خشية أن تصحو سارة حتى اندفع منه جماعة من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم وضعوا السلاسل حول معصمي عامر ومثلها حول معصميّ. صرخت: ماذا تريدون مني؟ لطمني أحدهم على وجهي: اسكتي يا فاجرة، تصرخين بأعلى صوتك يا زانية فالفضيحة لا تهمك ولا يهمك أن يسمع الجيران هذا الصراخ. لم أبكِ ولم أتوسّل. كنت أحاول إبعادهم من حولي، إلى أن شاهدت أحدهم يحمل طفلتي سارة فلم أتمالك نفسي وعدت إلى الصراخ بأعلى صوتي: «اتركوا بنتي» فإذا به يقذفها ناحيتي لتسقط على الأرض انحنيت نحوها فإذا بآخر يركلني حتى سقطت فوقها. فقدت توازني وكدت أكتم أنفاسها لولا أن رفعت نفسي عن جسدها النحيل.

وما هي إلا دقائق حتى قذفوا بنا ثلاثتنا في مؤخرة السيارة الجيمس، وأخذونا إلى مقرّهم. سحبونا ثلاثتنا وقذفوا بي وبطفلتي إلى حجرة وأظن أنهم فعلوا هذا بعامر في حجرة أخرى. وكان آخر ما سمعته من عامر وهم يسحبونه: لن أتخلّى عنكِ يا خولة سنتزوج ولو بعد عشرين عاماً.

دخل عليّ أحد رجال الهيئة، فاتّكأ على ركبتيه وبيده قلم وأوراق وضعها على الأرض حيث أجلس، ثم فك سلاسل الحديد من حول معصميّ:

ـ اكتبي عن كل تفاصيل علاقتك القذرة يا وسخة.

بداية رفضت أن أكتب شيئاً، بكيت، رجوته أن يتصل بأخي.

ـ ما تستحين يا الفاجرة وعرفنا، ولا تخافين بعد تبين أخوك يجي يتفرج على سواد وجهك.

كنت أعلم أن أخي لن يغفر لي ذنبي لكنه أخي حتى لو ضربني أو قتلني فبوجوده سأشعر بالأمان وأنا بين هؤلاء الأوباش.

ـ أنا ما سوّيت شي يا شيخ اللّي سوّيته بيني وبين ربّي إنتم جيتوا أخذتوني من بيتي ما جيتوني ببيت دعارة.

تمايلت عيناي بعد أن هبطت يده الثقيلة على وجهي:

ـ اكتبي يا الفاجرة وخلّصينا، حبيبك الفاجر كتب عنك كل شي واعترف. خلصي سيارة سجن الحريم تنتظرك بالحوش.

ـ السيارة!!! أخوي طيب لازم يجيني ذا الحين.

ـ أخوك يجيك هناك بالسجن خلصي نبي نروح ننام.

كتبتُ لهم ما يريدون، كتبت حكاية حبي التي كانت بعيدة عن مدارك مثل هؤلاء الرجال الذين لا يفهمون من الحب شيئاً ولن يفهموه. كتبت حكاية الحب أو الاعتراف بالجريمة مثلما يريدون. وجاء دور القاضي فحكم عليّ بالسجن أربع سنوات وسبع مئة جلدة، وحتى الآن لا يعلم أهلي شيئاً، فهم يعيشون في قرية جنوب الرياض وقد أخبرهم شقيقي أنه زوّجني لرجل طيب وجاءت ظروف الزواج عاجلة لأسباب السفر.

(٩)

صباح الجمعة كان واضحاً من بدايته. كانت السماء ملبّدة بالغبار والنفوس تزدحم بالجروح والآلام، وعندما سمعت صوت الجرس الخارجي شعرت بشيء ما يجثم فجأة على صدري. كان صوت أمي يناديني من بعيد:

«تعالي يا سارة، شوفي صديقتك غادة».

حتى صوت أمي وهي تنادي كان واضحاً أنه يصدر عن حنجرة تغصّ بالبكاء. لم أتعرف على غادة من ملامحها، ولكن من أنفاسها واختناقات صدرها وأنا أضمّها:

«ما الذي فعل بكِ هذا؟».

وقبل أن أستمع إلى الرد، صرخت منادية:

«هاتوا العباية».

أمسكت غادة بيدي وطلبت مني الصعود إلى حجرتي فنهرتها:

«يجب أن نذهب عاجلاً إلى المستشفى».

رفضت وأومأت إليّ بحركة مثقلة من رأسها أنها تريد الحديث معي وحدي. أمي ما زالت تبكي وتريد أن تعرف ما الذي فعل بغادة

هذا، عين مربوطة والأخرى متورمة ولا يظهر من الازرقاق المحيط بها إلا مساحة صغيرة حمراء. هدّأت من روع أمي ووعدتها أن أشرح لها القصة بعد منحي قليلاً من الوقت.

غادة الإنسانة الوحيدة التي استمرّ العهد بيني وبينها منذ أيام المراهقة، عندما جمعنا فصل دراسي واحد واجتهاد متوازٍ في صفوف الدراسة وشقاوة واحدة. وبرغم شقاوتنا المزعجة للمعلمات كنا الأقرب إليهنّ دائماً، وما من «مصيبة» تحدث في المدرسة إلا تكون وراءها سارة وغادة.

في نهاية الدراسة يوم الأربعاء من كل شهر، تُقام في المدرسة مباراة لكرة السلة بين طالبات القسم العربي والقسم الإنجليزي. وتتميز طالبات القسم الإنجليزي عنّا بالطول والعرض إذ إن غالبية طالبات القسم العربي قصيرات وتغلب عليهن السمنة والاكتناز، وهذا نتيجة حتمية لأكل الشاورما والهامبورغر.

أنا وغادة لم نكن نهوى كرة السلة إضافة إلى أن مقوّماتنا الجسدية لا تصلح للعبها، لذا كنا في كل مرة نقود صفوف التشجيع. وفي المباراة النهائية للفصل الدراسي كان من الصعب أن نتقبل الهزيمة وعندما اقتربت المباراة من نهايتها ومشجعات القسم الإنجليزي يتفنّن في إغاظتنا رأت غادة أن لا بد من وقف المباراة قبل إعلان الهزيمة مع تلقين تلك المشجعات المتغطرسات درساً. فوقفنا على طرف الملعب الترابي وبدأنا نقذف لاعبات القسم الإنجليزي بالحصى والتراب وما هي إلا ثوانٍ حتى عجّت الأجواء بالغبار

والتراب خصوصاً وقد جاءت هجمات مرتدة من اللاعبات والمشجعات. عندها جريت أنا وغادة واختبأنا في الفصل نشاهد المنظر من النافذة في الطابق الثاني ونضحك بخبث ونشوة على ما أحدثنا من فوضى. صحيح أننا كنا حزينتين جراء بعض الإصابات إلا أن الأهم من وجهة نظرنا أن الخطة نجحت والمباراة أوقفت من دون نتيجة.

اليوم هو نهاية الدوام الدراسي. وكنت وغادة نتدارس الأمر أثناء العطلة ونبحث عن حلول وذلك أن التحقيق في هذه المصيبة سيبدأ صباح السبت، فاقترحت عليّ غادة أن نتغيب عن المدرسة حتى تهدأ الحال لكني رفضت بحجة أن الغياب سيكون إدانة لنا. واتفقنا أن نذهب إلى المدرسة كالمعتاد وأن نتعامل مع الموقف وكأننا آخر من يعلم. انتظرت غادة بالسيارة على بوّابة المدرسة لأننا اتفقنا أن ندخل المدرسة معاً لئلا تنفرد المشرفة بإحدانا فتضعف أمامها ولأن وجودنا معاً سيقوّي الموقف ويشجّعنا على الإنكار. بعد دقائق وصلت غادة ودخلنا المدرسة وقد وضعت كل منا عباءتها في حقيبتها وسرنا في اتجاه الطابور الصباحي.

ما إن اقتربنا حتى سمعنا أبلى ليلى تقول بلهجة مصرية:

«تعالي يا بت إنتِ وهيا».

تبادلنا نظرتين بريئتين، واتجهت أيدينا نحو صدورنا ورددنا بصوت واحد:

«إحنا».

أجابت: «أمّال مين شايفين حد جايب المصايب للمدرسة غيركو».

ـ «وش السالفة يا أبلى ليلى».

ـ «ما تستعبطوش، قدامي الإدارة عشان تعرفوا السالفة».

كانت تتحدث بلهجتها المصرية اللذيذة وعندما وصلت إلى «السالفة» قالتها بلهجة نجدية محكمة.

سرنا خلفها، وما إن دخلنا غرفة الإدارة حتى استقبلتنا المديرة بنظرتين في منتهى السذاجة، علماً أن تمثيل البراءة يقضي براعة لا يتقنها الجميع. كانت مديرتنا لا تحب الصراخ ولا الصوت العالي ولا تتلفظ بأي عبارات سوقية، وهي تتبع هذه السياسة مع الجميع إلا أن مجرد الوقوف أمامها يُعتبر لدى طالبات المدرسة أكبر درس إذ إنها ترمق الطالبة بنظرة توحي لها بالفعل الشنيع الذي ارتكبته.

لم تسألنا ولم تفتح أي تحقيق، واكتفت بالقول:

«لا تعيدونها».

وأتبعتها:

«روحوا للمشرفة أكتبوا تعهد».

لم تكن تلك الغادة هي من تبكي بين ذراعي الآن. لم أجد في تلك اللحظة سوى غادة مكسورة هزيلة في كل شيء حتى في روحها.

وجّهت سؤالي إليها مباشرة:

«أهذا ما فعله بك الحب؟».

أومأت برأسها، وبدا أنها لا تريد أن تتحدث فاحترمت رغبتها ولم

أضغط عليها، لم أشأ أن أستغلّ ضعفها لتبوح لي بحكايتها. تركتها تنام واستلقيت إلى جانبها وجانب ذكرياتنا.

لحظة دخولنا الجامعة، كنا ننظر إلى الطالبات في المراحل الأخرى عندما كنا في الصف الثالث ثانوي بأنهن صغيرات ونتعمد الحديث أمامهن عن الجامعة وعن التخصصات التي سنلتحق بها. وعندما تتحدث إحداهنّ عن رغبتها في تخصص معيّن كنت أجيبها بكل غرور وغطرسة:

«أوصلي للتوجيهي وبعدين فكري».

أما غادة فتقول بالنبرة اللئيمة ذاتها:

«توّك صغيرة على ما تكبرين بيكون دار براسك عشرين فكرة».

وحين تمرّ بنا أبلى ليلى وقد سمعت ما قلنا ترفع حاجبيها وتمدّ رأسها باتجاهنا قائلة: «يا شرّيرات» وبعد أن نصدّها بعلامات الدهشة نواصل الضحك.

وجاء يوم التقدّم إلى الجامعة، هذه الكلمة التي كنا نقولها، خلال العطلة الصيفية، أنا وغادة في اليوم أكثر من خمسين مرة، ونفكر معاً في التخصص، والخشية من اختلاف الشعب، والفراق، وماذا سنلبس؟ وكيف سننادي الأبلى؟

هذه الكلمة التي سبّبت لنا إحراجاً مشتركاً، إذ كنا في الأسبوع الأول ننادي المدرّسات بـ«أبلى» قبل أن نعتاد النداء بأستاذة أو دكتورة.

ومضى الفصل الأول بنجاح وتفوّق، ولم يعد هناك وقت للشقاوة

وكانت سعادتنا أكبر بأننا في الشعبة نفسها.

وفي الفصل الثاني اختلفت الشعب في جداولنا، وما من توسّل في العالم إلا وجرّبناه، لدى رئيسة القسم، والسكرتيرة، والإدارات، وأخيراً العميدة. وبعد هذا كلّه كان لا بد أن تحلّ الرأفة وبالفعل تم نقلي إلى شعبة غادة.

مرّ علينا العام الأول في الجامعة بنجاح، دخلنا وقد جرّبنا كل نوبات الجنون ولم نكن كغيرنا نبحث عن الفرار من المحاضرات والتسكع في شارع بوابة ٥ المعروف بـ«الشانزليزيه».

لم نستعرض أنفسنا هناك. فلم نكن لا أنا ولا غادة نطمع في الحصول على لقب ملكة جمال الجامعة، إذ كانت ثقتنا بمحاسننا أكبر من هذا، علماً أنه كان من عادة رائدات هذا الشارع إقامة انتخابات سنوية لملكة جمال الجامعة.

في وقت الفراغ بين المحاضرات كنا نذهب إلى المطعم. هذا المكان لا تدخله بنات الطبقة المخملية ومعظم رائداته من طالبات السكن المغتربات اللاتي حضرن للدراسة من المنطقة الشرقية ممن ينتمين إلى المذهب الشيعي والمعروف في منطقتهن عدم وجود جامعات لأسباب سياسية. وكنا نحن خريجات مدارس «الشاطرية» وهي خاصة بالأغنياء حتى أنها كانت مستثناة من المدارس الأخرى التي تمنع فيها وزارة التربية والتعليم («الرئاسة العامة لتعليم البنات» آنذاك) حصص الرياضة، وكانت لدينا حصّة موسيقى أسبوعية، فصاحب المدرسة صاحب نفود وله اعتبارات خاصة... ! ولا تقوى

الوزارة على مدارسه بتطبيق قوانينها وأنظمتها المستوحاة من التعليمات الوهّابية المتشددة.

وكلّما دخلنا ذلك المطعم الذي يبيع وجبة الغداء كاملة بريالين في حين تباع الكرواسون وحدها في مقاصف الجامعة بثلاثة ريالات، كانت تواجهنا نظرات استغراب من الطالبات الأخريات. وغالباً ما كنّ يتعجبن من ذلك إذ اعتدن على أن بنات الرياض لا يبحثن عن الوجبات الرخيصة، ولديهنّ بيوت أهل ولسنَ بحاجة إلى وجبات مطعم الجامعة البائس. أما البنات المخمليات في الجامعة فينظرن إلى الطالبات اللاتي يتناولن الغداء في الجامعة نظرات احتقار ودونية.

لم يكن دخولي أنا وغادة المطعم في بداية الأمر أكثر من فضول ثم تحوّل إلى الرغبة في رؤية فتيات أقل زيفاً من غيرهن ولا سيّما أن زميلاتنا الشرقاويات يتسمن بالبساطة والجدّية ولديهن هدف هو العلم وهذا ما جئنا من أجله.

لم تستمر الرفقة، فقد اختارت غادة الزواج في أول عطلة صيفية حين تقدّم لخطبتها يوسف الذي لم تره إلا في يوم عقد القران. لم يكن تشدداً من أسرتها، بل هو الخجل الذي منع غادة من أن ترفع عينيها لرؤيته في يوم الرؤية الشرعية. وقد حاولت ثنيها عن قرارها. صحيح أن يوسف شخص متعلم ومن أسرة مرموقة، لكنه لا يحمل مواصفات تختلف عن مواصفات أي شاب سعودي ولذا لن يكون الفرصة الوحيدة لها. وأمام إصرارها لم يكن أمامي سوى أن أبارك زواجها.

خلال شهر واحد تم فيه التجهيز ليوم العرس كنا نخرج يومياً من الرابعة عصراً وحتى الحادية عشرة مساءً، تارة ترافقنا والدتها وتارة عمّتها هيا. وفي أغلب الأوقات كانتا تفضّلان التنصل من مهمة المرافقة، فالعروس قد تدخل المحل الواحد وتمضي فيه أكثر من ساعة مما يزيد من حدة غضب والدتها، ولا تختلف عنها العمة هيا كثيراً. وبعد مشادات عدّة تم التفاهم على أن تبقيا في البيت تجنّباً لتعكير جوّ العروس.

اعتقدت غادة أن فرحتها بثوب العرس ستكون تتويجاً لحياة الهناء والسعادة، لكنها شعرت بالغربة منذ اليوم الأول عندما استيقظت صباحاً فاتصلت بي فوراً. وقد ظننت أنني لن أسمع صوتها إلا بعد أشهر حين تفيق من غيبوبة الفرح.

خاب ظني وخاب ظنها منذ الليلة الأولى التي اقتحم فيها يوسف عذريتها بطريقة فظّة. حدثتني بذلك قبل خروجها إلى المطار وكأنها مترددة، فهدّأتها وأخبرتها بأن كل ما مرّ عليّ من قصص فضّ البكارة كان أبشع وأكثر إيلاماً من ليلة غادة. لم أكن صادقة معها ولكني أردت أن تتجاوز خيبتها الأولى.

تذكرت في تلك اللحظة «جيجي» ابنة عمي عندما أخذت تروي للقريبات كيف عاشت ليلة فضّ البكارة، التفّت الفتيات حولها بفضول، وبعضهنّ بشبق، ليلتقطن شيئاً من العبارات الجنسية والأوضاع الرومانسية لعروس لم تتعدّ في حياتها أكثر من حدود مدينة «ضرماء» التي لا تبعد عن الرياض أكثر من مئتي كيلومتر.

فجأة وجدت نفسها في أثينا تتوسّد أريكة سرير في فندق فاخر وتعبث أناملها بزجاجة الريد واين التي وصفتها بأنها أجمل ما في ليلة الفرح.

جلست غادة على المقعد الخلفي تستمع إلى والدها وهو يوصي يوسف بالانتباه إليها لأنها لا تزال صغيرة ولم ينسَ أن يوصيها أيضاً بالاهتمام بيوسف. لم تتكلّم طوال الطريق وظلّت تبكي حتى وصلت إلى مطار الملك خالد الدولي من حيث ينطلقان لقضاء شعر العسل الذي تحلم به كل فتاة.

استمرت دموع غادة في الانهمار حتى عودتها. وتوقفت يائسة عندما قالت لها والدتها:

«ما عندنا بنات مطلقات».

منذ أن علقت هذه العبارة بذهن غادة عاشت لتطبّقها وليس لتطبيق قانون الحياة الإنساني. أخذت على عاتقها أن تعيش لئلا يكون في أسرتها مطلقات. على أنها ما لبثت أن حملت لقب مطلقة بعد وفاة والدتها، فمنذ أيام العزاء التي أمضتها غادة في أسرتها قررت أن لا تعود إلى بيت الزوجية، مع قناعتها بأنها الحلقة الأضعف وأنها طالما وقفت أمام يوسف طالبة حريتها وأن هذا سيكلفها الكثير.

هو يسير ويقرر وينفّذ وفق قوانين ذكورية ومحاكم ذكورية ومجتمع ذكوري، وعليها هي أن تنظم سير حياتها أو على الأقل أن تصمد في وجه كل هذا الطغيان الذي تُعامل به المرأة في هذا البلد وفق أنظمة أنثوية لفظاً وذكورية تطبيقاً.

كثيرة هي الأفكار، وكثيرة تلك الوجوه التي أراها في الزنزانة.

شيء ما يشبه جاثوم المنام، يضغط أنفاسي.

أين غادة؟

(١٠)

أربعة أشهر مضت على خروجي من السجن، وأنا أبحث عن رئيف، حتى دبّ اليأس في نفسي وأيقنت أنه قد أمضى بسببي أسوأ أيام حياته. علمت أن المؤسسة التي يملك جزءاً منها قد باعها أشقاؤه لشريكه من أجل إتمام مصاريف علاج والده الذي أصابته جلطة في الدماغ بعد حبس ابنه. والغريب أن رئيف لم يُسجن سوى ثلاثة أشهر مع خمسين جلدة، وكانت عقوبته أخف من عقوبتي بكثير مع أنه من المفترض أن الجرم واحد. فحتى القرآن الكريم الذي يدّعي هذا القاضي بأنه يُطبّق شرعه لم يفرّق بين عقوبة الرجل والمرأة في مثل ما اتهمنا به.

علمتُ بذلك في وقت متأخر فأدركتُ أنه لم يسأل عني ولم يحاول أن يحمل معي الإثم على الأقل أمام والدتي المسكينة وأن يقف معها في وجه الأقارب أو الجيران. مجمل القول أن رئيف لم ينصرني وهذا التصرف لا يحتمل أكثر من تأويل واحد وهو أني كنت سبباً لمشاكل حياته. إذن من الآن يجب أن أعود... أعود كما كنت إحدى الأنانيات في هذا العالم الذي لا يتسع إلا للأنانيين. يجب أن أنهض

بنفسي وإن لم يكن هذا من أجلي فعلى الأقل من أجل «أمي» التي احتملت كثيراً.

احتملت الرياض بقسوتها وأنانيتها. احتملت الشهيق والزفير السامّ. احتملت الأرض الصلبة التي تدّق في كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة في عظم آدميتها، وتنخر في كل شعرة بيضاء في رأسها.

«أمي» التي خرجت من أرض نجد الصحراوية، حملت مشاعر امرأة قادمة من الساحل، لم تكن هي، ولم أكن أنا، ولم تكن الأقدار.

إنها الأرض التي تُشكّلنا وإذا لم تقوَ فإنها تعادينا.

يجب أن أنهض، وأعمل، وأعيش.

بعد ثلاث سنوات من السجن والغياب والموت، أعود حاملة معي سجلّ سوابق كأي مجرم عاديّ.

هذا السجلّ يُحرّم عليّ العمل، والحياة، والكسب.

يحرمني أن أكون أنا.

جارتنا «أم حزام» البدوية تروي لأمي حكاية ابنتها التي تخرّجت منذ خمس سنوات في الجامعة ولم تجد وظيفة...

اتجهت للعمل «صبّابة قهوة» في أحد قصور الأفراح.

ما الذي يمنع أن أدوس شهادة البكالوريوس وأمزّق معها سنوات الخبرة وأعمل «صبّابة».

فوجئت والدتي بهذا القرار. بكت وناحت:

«ليتني ما قلت لك عن بنت أم حزام».

حضنتها. تحسّست أوردة قلبي كل زفراتها ودقّاتها ونبض شرايينها:

ـ كيف سنعيش يا أمي؟ راتب تقاعد والدي لا يكفي حتى فاتورة الكهرباء. وبغضّ النظر عن هذه الحاجة فأنا أريد أن أخرج من البيت، أن ألتقي الناس، أن أختزن في ذاكرتي وجوهاً جديدة.

ـ حتى لو «صبّابة»؟

استأجرت سيارة ليموزين ورحت أجول على قصور الأفراح. كلهم طلبوا رقم هاتفي وسيتصلون بي في حال وجود مناسبة.

وفي طريق عودتي إلى المنزل اتصلت بي «القهوجية» وهي مديرة الصبّابات.

«بكره يا بنت تجين قصر مناير للأفراح فيه عرس وتلبسين مقطع أخضر وشيلة منيخل» بشّرت أمي، أول يوم عمل سيكون غداً وسأتقاضى على الليلة ثلاثمئة ريال.

لم تكن والدتي سعيدة بالخبر...

أخذت تطرح الكثير من الأسئلة:

«افرضي شافك أحد من أقاربنا؟».

«افرضي شافك أحد من صديقاتك؟».

«بتعرفين تصبّين القهوة؟».

«أخاف تكبّينها على الحريم؟».

أسئلة متلاحقة بنبرة مخنوقة؟!

ومع ذلك فإنها تدرك بأني سأنطلق للعمل ولن أواجه كل محاولاتها إلا بتهدئتها.

أمي لم تسألني حتى اليوم عن رئيف. ولا تحبّ أن تأتي على سيرته منذ الأسبوع الأول على خروجي من السجن عندما سألتها إن كان سأل عني أو عنها.

في الخامسة مساءً من اليوم التالي كنت قد وصلت إلى قصر الأفراح. بدأت القهوجية بتوجيهنا في الصالة وترتيب طريقة التقديم وتنظيم الطاولات التي تقع تحت مسؤولية كل فريق من الصبّابات بعد أن قسّمتنا أربع فرق.

حتى وأنا أعمل تحت مسمّى «صبّابة» اندمجت في العمل.

أمسكت بدلّة القهوة والفناجين بكل احترافية. من يراني لا يصدق أني لم أمسكها من قبل.

النساء والفتيات يتراقصن على أنغام غناء الطقّاقات. الناس كلّهم سعداء. حتى أنا أشعر للمرة الأولى بالسعادة بعد خروجي من السجن.

دخلت العروس، ودخلت معها أصوات الزغاريد والفرجة. وجّهتني القهوجية إلى أن العريس والرجال الذين يزفّونه لعروسه سيدخلون بعد قليل، وأن نظام الضيافة لا ينقطع بل يستمر، والمهم أن أسحب طرف الشيلة وأغطي بها وجهي.

صرخت الطقّاقة بالمايكروفونات:

«تغطوا يا حريم العريس وصل».

تسارعت دقّات قلب العروس. كنت أراقبها بمتعة وعقد الألماس يرتجف مع نبضات قلبها.

أقبل العريس لتخرج مع خطواته روحي. أقبل رئيف ليرحل إلى الأبد.